رؤية العالم والعلوم الاجتماعية

د. فتحي حسن ملكاوي*

مقدمة

حددت حركة الإصلاح الفكري -التي يعمل المعهد العالمي للفكر الإسلامي في إطارها- موضوع الرؤية الكونية الإسلامية محورا مركزيا من محاور نشاطها؛ ذلك أن هذه الرؤية هي التي تحدد طبيعة النظام المعرفي الإسلامي، وملامح المنهجية الإسلامية في التفكير والبحث، وتطبيقاتها في التعامل مع الأصول الإسلامية، والتراث الإسلامي والإنساني، والواقع المعاصر، والمستقبل المنشود للأمة والعالم.

ويرتبط موضوع الرؤية الكونية، أو رؤية العالم، بالرغبة العميقة وبالحاجة الأصيلة من فطرة الإنسان في البحث عن إجابات الأسئلة الكلية والغائية، التي يطرحها وجود الإنسان وحياته وعلاقته بالكون الذي يعيش فيه؛ من أين جاء، وإلى أين يصير؟ لكن أمر هذه الأسئلة لايبقى مجرد إحساس فطري بل يتحول إلى جهود عقلانية منظمة تبنى عليها مفاهيم ونظريات، وتنشأ نتيجة لها علوم ومعارف، ويلتزم وفقها بأيديولوجات، ومن ثَم تتحيز لها الأحزاب والجماعات وتقوم على أساسها الدول وتشن من أجلها الحروب. ثم تنشأ المنظمات الدولية للسعي لحل النزاعات ونشر السلام وإقامة العدل...إلخ. ومع أن مفهوم رؤية العالم يتداخل في مختلف حقول المعرفة: في الدين والفلسفة والعلوم الاجتماعية والطبيعية، فإن العلوم، الاجتماعية على وجه التحديد، كثيرا ما توظف في تبرير صور الاتفاق أو الاختلاف بين الناس أفرادا وجماعات ومجتمعات، على أساس ما يمتلكونه من رؤية للعالم.

إن رؤية العالم -بوصفها أساسا كامنا، وطريقة في التحليل، وموضوعا للدراسة- متشابكة بعمق في فلسفة العلوم الاجتماعية ونظرياتها وطرق بحثها. ويتداخل مفهوم رؤية العالم مع بعض الأدوات المنهجية المعرفية التي يستخدمها المفكر والباحث في تحليل الظواهر والوقائع والأفكار، بهدف تمكينه من رؤية كلية للموضوعات المتفرقة، فتربط الكلي والجزئي، والعام والخاص، حتى تتحقق الإحاطة بالظاهرة موضوع الدراسة ويتحصل الإدراك الشمولي لها. فالعلاقة بين رؤية التفاصيل والرؤية الكلية ليست علاقة سطحية خطية، وإنما هي علاقة تفاعلية جدلية معقدة؛ فالرؤية الكلية تضع التفاصيل في موقعها المناسب. وإدراك التفاصيل في حدودها الخاصة بها لا يقتصر على التقاطها وتمييزها في موقعها من الزمان والمكان، وإنما يتجاوز ذلك إلى ربطها برموزها ودلالاتها وما يرتبط بها من أفعال وردود أفعال، وهذا يعني الارتقاء بها إلى مستوى من التجريد الدلالي الذي يتطلب بالضرورة إعمال العقل والتأمل العميق، مما ينتج عنه تعديل في الرؤية الكلية وتوسيع في مجالاتها.

---

* دكتوراه في التربية العملية وفلسفة العلوم، المدير التنفيذي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، fathi@malkawi.com.

وتهدف هذه الورقة إلى توضيح العلاقة بين رؤية العالم والعلوم الاجتماعية، وسوف يتبين لنا من هذه ا لعلاقة أن الصورة التي تظهر بها هذه العلوم هي انعكاس لطبيعة رؤية العالم، التي تمتلكها الجماعات العلمية عند صياغتها لتصنيفات هذه العلوم ومفاهيمها ومبادئها ونظرياتها. ورغم أن الجماعة العلمية لأي علم من العلوم هي من الناحية النظرية جماعة عالمية تتجاوز حدود اللغة والإقليم، لكنها من الناحية الواقعية نتاج رؤية العالم السائدة لدى الأمم، المهيمنة في ميدان الإنتاج المعرفي، وإن أفراد هذه الجماعة العلمية من الأمم الأخرى يأخذون مواقعهم في هذه الجماعة من خلال انخراطهم في أولويات البحث وشروطه ومناهجه التي يجرى تحديدها في ضوء رؤية العالم تلك.

وإن وجود تعدد في الرؤى الكلية حول العالم هو أحد خصائص الثقافة المعاصرة، وإذا كانت العولمة في هذا العصر هي اتجاه آخذ في الانتشار لتعميم ثقافة واحدة، فإن الاختلاف والتعدد في رؤية العالم هو خاصية مميزة لهذا العصر أيضا، وربما تخدم العولمة في جعل هذه الرؤى المتعددة معروفة ومتاحة لأعداد متزايدة من الناس.

ولا يقتصر تأثير رؤية العالم على العلوم الاجتماعية؛ فعلاقة رؤية العالم بأصناف العلوم الأخرى مثل العلوم الطبيعية والعلوم الدينية لا تقل شأنا عن علاقتها بالعلوم الاجتماعية، لكن موقع العلوم الاجتماعية في تحديد هوية الأمة وأنماط حياتها وحضورها في العالم، يبرر ضرورة الاهتمام بها وفهم العوامل المؤثرة في تطورها ونموها. كذلك فإن واقع العلوم الاجتماعية في البلاد الإسلامية يحتم بذل الجهد اللازم لفهم أبعاد هذا الواقع والتخطيط من أجل تطويره.

أولا: أهمية البحث في رؤية العالم

يتشابه الناس في الخصائص المادية والنفسية والعقلية، لكنهم يختلفون في هذه الخصائص وغيرها، فأي تلك الخصائص يعد مهما فيما يختلف الناس فيه أو يتشابهون؟ عندما ننظر إلى التفاصيل نجد أن الناس يختلفون في أشياء كثيرة جدا، ويمكن لأي شيء أن يكون في لحظة معينة العنصر المهم في تحديد الاختلاف، وفي لحظة أخرى ينحسر هذا العنصر ليفسح مجالا لعنصر آخر يعبر عن الاختلاف بصورة أكثر أهمية. وهكذا تبدو التفاصيل غير قادرة على بيان المهم والأكثر أهمية في تحديد جوهر الاختلاف بين الناس. من هنا تأتي أهمية البحث عن معيار آخر يقترب من رؤية الصورة الكلية، وملاحظة ملامح الإطار الكبير الذي يعطي للفرد تحديدا أكثر تعبيرا، ووصفا أدق دلالة من تلك العناصر التفصيلية.

إن كل صور السلوك الإنساني يمكن في النهاية إرجاعها إلى رؤية العالم. وهي نتيجة كافية بحد ذاتها للكشف عن أهمية رؤية العالم في الحياة الفردية والاجتماعية والنشاط العلمي، ووفق هذه النتيجة يمكننا تأكيد الدور المركزي لرؤية العالم في أعمالنا، دون أن نقلل من أهمية العوامل الأخرى مثل نفسية الفرد والمحيط المادي والاجتماعي. لكن من الناحية المعرفية كيف تبقى رؤية العالم أكثر أهمية من أي عناصر أخرى ذات علاقة

بالسلوك الإنساني، لأنها الإطار الوحيد الذي يمارس العقل الإنساني عمله فيه لاكتساب المعرفة. ولذلك فإن رؤية العالم تعد الأساس لأي نظرية معرفة وأي جهد لاكتسابها أو توظيفها. وإن وضوح الرؤية الكونية وتماسكها يولد طاقة وحماسا للحصول على المعرفة، والإبداع والاكتشاف، وستكون نتائج بحوث العلماء ومكتشفاتهم منسجمة مع معتقداتهم. ولذلك فإن تشوه الرؤية الكونية لدى العلماء والطلبة في مجتمعاتنا لا يوفر لهم ذلك الحماس وتلك الهمة العالية، وأصبح البديل هو انتحال الأعذار وضياع الوقت وخور العزيمة، وفي أحسن الأحول تكرار معارف الآخرين، دون استيعابها أو توظيفها.

وتظهر آثار رؤية العالم على الأداء الحضاري للأفراد والمجتمعات، حتى في اللغة؛ إذ تتخلل رؤية العالم اللغة التي تكتب فيها العلوم، وبخاصة العلوم الاجتماعية؛ لأن اللغة تتحيز بطبيعتها للأنماط الحضارية لأهلها، فالمفردات والمصطلحات والتراكيب اللغوية كلها تمثيلات للقيم والاتجاهات التي تسود واقع الأمة التي تتحدث بها.

وعلى صعيد العلاقات الدولية نلاحظ أن الصراع بين القوى المختلفة في العالم لم يتوقف بعد انتهاء الحرب الباردة، التي كان التنافس والصراع فيها على أساس سياسي ونفوذ أيديولوجي ومصالح اقتصادية، وحول قضايا الولاء والهوية، بل أخذ يشتد ويأخذ بعدا ثقافيا وحضاريا أوسع مدى وأعمق في جذوره، وأوسع في مجالاته، فالشعوب أخذت تحاول الإجابة عن الأسئلة التي تواجهها، وخاصة الأسئلة الأكثر عمقا؛ من نوع: من نحن؟ وأخذت تجيب عنها بالطريقة التقليدية التي كانت هذه الشعوب تستعملها سابقا؛ أي بالإشارة إلى الأشياء التي هي أكثر معنى من غيرها. والأشياء الأكثر معنى لأكثر الناس هي: أجدادهم ولغتهم وتاريخهم وقيمهم وعاداتهم ومؤسساتهم التقليدية، وبخاصة الدين. وفي القلب من هذه الحرب الثقافية على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي "صدام الرؤى الكونية." ويتجاوز هذا الصدام الكلام أحيانا ليصبح أكثر دموية، كما يتزايد الميل لتكون طرق التنافس في فهم الوجود الإنساني أكثر عنفا، الأمر الذي يوضح أهمية البحث في مفهوم "رؤية العالم" أو "الرؤية الكونية."

ويتداخل مفهوم رؤية العالم في مختلف حقول المعرفة: في الدين، والفلسفة، والعلوم الاجتماعية والطبيعية، والفنون، والعلوم التطبيقية مثل الطب والهندسة.. وغيرها. فالمصطلحات الدينية مثل الإيمان والعقيدة والتصور الكلي، تعبر عن مجموعة الأفكار والمفاهيم والمعتقدات التي تجيب عن الأسئلة الوجودية الكبرى، التي يحاول مصطلح "رؤية ا لعالم" التعرض لها. وهي نفسها الأسئلة التي شغلت بها الفلسفة منذ بداية اشتغال الإنسان بها. وهي المحتوى الأساسي لفلسفة أي علم من العلوم الحديثة الذي يؤثر في تشكيل نظريات هذه العلوم ومناهج البحث فيها. وجميع الأفلام السينمائية، من أكثرها إثارة للضحك (كوميدية) إلى أكثرها إثارة للحزن (تراجيدية)، رغم أنها تأخذ بخيال المشاهد، إلا أنها تقدم قيما ورؤى محددة للعالم؛ إذ لا يوجد فيلم واحد يعرض قصة محايدة، لا تكون مطبوعة بالمعتقدات والقيم الثقافية للمؤلف والممثل

والمخرج.[1] وإن كثيرا من الناس يقيمون الأفلام التي يرونها من خلال عروض الإغراء الجنسي والعنف، وهي عروض كثيرة متكررة بطريقة مبالغ فيها، لكن الأهم من ذلك هو الآثار النفسية والثقافية التي تعكس الفلسفة الكامنة في قصة الفيلم، هذه الفلسفة التي تمثل رؤيتنا للعالم والأشياء ولأمثلة الخير والشر أو الصواب والخطأ. وليس من الضروري أن يكون المشاهد للفيلم على وعي بالرسالة الفلسفية أو رؤية العالم التي يجرى عرضها. وكما يحاول الرسام باستخدامه الخطوط والألوان التي يستعملها أن يوجه عيني المشاهد إلى ما يريد، فإن كاتب قصة الفيلم بتنظيمه للعناصر البنيوية والأحداث المتسلسلة والخبرات الانفعالية يقود انتباه المشاهد إلى مايريده كاتب قصة الفيلم ومخرجه.[2]

إن وظيفة رؤية العالم في الأساس هي تزويدنا بالإطار العام الذي نفهم به كل شيء ونفهم أنفسنا أيضا، وجعل فهمنا ضمن كل موحد؛ فكلما حاولنا أن نكون فهما معينا أو أن نصوغ نظرية لتفسير شيء ما، فإننا، بالضرورة وبطبيعة عمل العقل، نستخدم رؤيتنا للعالم. ولذلك فإن وظيفة رؤية العالم هي وظيفة معرفية. ودور المفكر المسلم المعاصر لا يقتصر على ضرورة استخدام رؤية العالم بوصفها وحدة تحليل للأفكار والمواقف والأشخاص والمؤسسات، ليعرف أين وكيف تختلف رؤيتنا للعالم عن الرؤى الأخرى، بل عليه أن يجعل الرؤية الإسلامية للعالم معروفة لأصحاب الرؤى الأخرى، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة!

ثانيا: مفهوم رؤية العالم

إن الصورة الكلية التي يكونها الإنسان لنفسه عن نفسه وعن العالم من حوله، في حدود الموقع الذي يحاول منه الرؤية، وزاوية النظر التي يتخذها، والبيئة الطبيعية والنفسية والاجتماعية، والنظام الفكري بمكوناته اللغوية وأطره المرجعية... هذه الصورة الكلية هي التي تعرف الإنسان، عندما تنظر إليه من الخارج، وتعرفه برؤيته هو لنفسه وللأشياء من حوله، وهي ما يعرف بالرؤية الكلية، أو الرؤية الكونية، أو الفكرة الكلية، أو التصور الكلي، أو الفلسفة العامة، أو التفسير الشامل، أو النموذج التفسيري أو الأيديولوجيا... أو ما أصبح يعرف على نطاق واسع: رؤية العالم.

ورغم المقولة المعروفة في استخدام المصطلحات: "لا مشاحة في الاصطلاح،" فإن بعض الناس لا يفضلون استخدام مصطلح لم يرد في نصوص القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف. ومع أن تطور العلوم قد أضاف إلى مفردات اللغة كثيرا من المصطلحات التي استقرت لدى أهل العلم، في الدلالة على فئات العلوم؛ فإنه ثمة من يتحفظ على استخدام مصطلحات جديدة؛ بحجة أن بعضها ربما يحمل جذورا وملابسات تشوش دلالة المصطلح، وتبعدها عن المفهوم الذي يريده الكاتب. فالمرحوم سيد قطب كان

---

1 Godawa, Brian. *Hollywood Worldviews: Watching Films With Wisdom and Discernment,* Downers,Ill: InterVasity Press, 2002, p.16.

2 Ibid., p. 21.

مشغولا منذ مطلع الخمسينات بالربط بين الفهم الذي تتطلبه عقيدة الإسلام وما يبنى عليها من سلوك، والفكرة الكلية عن الكون والحياة والإنسان، وكان يَعِدُ بإفراد هذا الموضوع ببحث متخصص، إلى أن أخرج كتاب "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته." وقد ناقش أهمية استخدام مصطلح محدد لهذا الغرض، يعبر عن "الفكرة الكلية عن الكون والحياة والإنسان." ولم يكتف باستخدام مصطلح العقيدة أو الفكرة الكلية، ولم يقبل بمصطلح الفلسفة الإسلامية الذي نوقشت عناصر الموضوع تحته، ومع ذلك كان لا بد من اختيار مصطلح محدد، فاختار مصطلح: "التصور."

ولا شك في أن من المفيد والمهم كذلك معرفة جذور المصطلحات وتطورها الدلالي، وعلاقة ذلك بالوضوح الفكري (أو الفوضى الفكرية) وبخاصة في فترات التفاعل الثقافي بين الأمم والشعوب، مثلما يحصل في عصرنا هذا من عولمة للأفكار والممارسات، واقتراض متبادل للمفاهيم والمصطلحات. وهي فترات تخشى فيها الأمم الضعيفة من المصير الذي يتهدد هويتها: تاريخا ولغة وثقافة. ومن المتوقع أن الكاتب إذا أراد أن يتجنب استخدام مصطلح معين، خشية ارتباط دلالته بخلفيات معينة، فإن اختياره لمصطلح آخر بديل لن ينقذ المصطلح الجديد من الخلفيات الثقافية الخاصة للكاتب نفسه.

وعلى أية حال، فإن الثقافات البشرية عرفت هجرة المصطلحات من ثقافة إلى أخرى، ومن ميدان معرفي إلى آخر. وحين يهاجر المصطلح فإن جهودا تبذل في توطين المصطلح لكي يحمل في موطنه الجديد دلالات محددة لا تتقيد بالضرورة بجذوره الأولى. ومصطلح رؤية العالم واحد من هذه المصطلحات المهاجرة، فقد انتقل من موطنه الأصلي في الفلسفة وتوطن في عدد واسع من المجالات المعرفية، وبخاصة في العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية. وسوف لن نبالغ في تقدير أهمية مفهوم "رؤية العالم" إذا أدركنا درجة تأثير الطرق الأساسية لإدراك العالم الذي نعيش فيه، وموقعنا فيه، في فهمنا للعلوم الطبيعية والاجتماعية.

وقد أصبح مصطلح رؤية العالم شائعا في العقود الثلاثة الأخيرة في جميع الكتابات التي تتعلق بالأسئلة الكبرى في الدين والفلسفة والعلوم، حتى أصبحت من المصطلحات التي لا يُستغنى عنها. ومع ذلك فقليل جدا من الكتابات تعرضت للتاريخ الفلسفي لهذا المصطلح. وتشير الدراسات إلى أن المفكرين الألمان اهتموا أكثر من غيرهم منذ وقت مبكر بدراسة تاريخ الألفاظ والمصطلحات وتاريخ المفاهيم والأفكار، وبخاصة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد رصد ديفيد نوجل سبعة من المراجع المهمة التي صدرت منذ مطلع القرن العشرين بالألمانية حول تشريح مصطلح رؤية العالم وتطور استعماله، كذلك يلاحظ كيف أن هذا الموضوع لم ينل إلا القليل من الاهتمام في الكتابات باللغة الإنجليزية.[3]

أما أصل هذا المصطلح، كما يتم استخدامه في الأدبيات المعاصرة، وكما تكشف الموسوعات الفلسفية وبعض المؤلفين الذين تخصصوا في البحث في تاريخ المصطلح- فإنه يعود إلى "إيمانويل كانت" (1724-1804م)، حيث استخدم المصطلح بالألمانية Weltanschuung. ولدى مراجعة أعمال "كانت" المترجمة إلى

---

[3] Naugle, David K. *WorldView: The History of A Concept*, Grand Rapids, MI: William Eerdmans, 2002, p.56.

الإنجليزية نجد أنه استعمل المصطلح مرة واحدة في كتابه "نقد الحكم: Critique of Judgment" وفي سياق محدد يتعلق بقوة العقل البشري على الإدراك الحسي. ولدى مراجعة ترجمة هذا الكتاب إلى الإنجليزية[4]، لوحظ أنها استخدمت لفظة Worldview مع الاحتفاظ باللفظة الألمانية إلى جانب الإنجليزية المقابلة لها.[5] لكن استخدام المصطلح على نطاق واسع وبصورة تشير إلى الدلالات المعاصرة، ينسب إلى الألماني وليلهام دلثاي 1833–1911، وذلك في عناوين كتبه ومقالاته. ومما يلفت النظر أن دلثاي لم يكن معروفا في الأدبيات الفلسفية المكتوبة بالإنجليزية بالدرجة التي عرف بها كثير من الفلاسفة وعلماء النفس وغيرهم من المفكرين الغربيين.

ومن جهة أخرى فإن مصطلح رؤية العالم قد استخدم على نطاق واسع في دراسات فلسفة العلوم. وقد ارتبط المصطلح ارتباطا مباشرا بفهم الإنسان لبنية الكون المادي وعلاقة مكوناته ببعضها، وموقع الإنسان فيه، وسبب سلوك ظواهره على الصورة التي نلاحظها. وفي هذا المجال تصف أدبيات تاريخ العلوم وفلسفة العلوم في مراجعها الغربية كيف تطورت رؤية العالم من رؤية أرسطية تنسب إلى الفيلسوف اليوناني أرسطو (BC 322–384) وتقول بمركزية الأرض في الكون؛ إلى رؤية نيوتونية تنسب إلى العالم الفيزيائي البريطاني إسحق نيوتن (1642–1727م)، وتقول بتبعية الأرض للشمس في النظام الشمسي ودورانها حولها وحول نفسها؛ إلى رؤية ترتبط بالنظرية النسبية التي طورها ألبرت أينشتاين (في الفترة 1905–1916م) وهي النظرية التي قلبت كثيرا من المفاهيم العلمية حول الكون بعد إعادة تعريف مفهوم الفضاء والزمن؛ ثم إلى رؤية ترتبط بنظرية الكم التي طورها مجموعة من العلماء من أشهرهم "ماكسويل بلانك (1858-1947" و "أوروين شرودنجر 1887–1961م"، وكشفت عن مشكلات القياس العلمي. ومع أن كل رؤية من هذه الرؤى تتضمن تفسيرات للحقائق المتعلقة بالكون الطبيعي وتنبثق منها تفسيرات حول موقع الإنسان في الكون وطبيعة معتقداته، فإن كل رؤية جديدة من هذه الرؤى كانت تنتقل من الإطار الأكبر (macro) ممثلا بالأجرام السماوية في الكون، إلى الإطار الأصغر (micro)، ممثلا بالجسيمات الدقيقة التي يتكون منها الكون مثل الإلكترون والفوتون، وكانت تبتعد في محتوى مقولاتها عن مشكلات الطبيعة المادية وتقترب من القضايا الفلسفية للإنسان.[6] ولم تأت أي رؤية من هذه الرؤى جزافا، فإن كلا منها كان يعتمد على "حقائق إمبريقية" واضحة بصورة تكفي لتقديم إجابات "معقولة" عن الأسئلة التي كان يطرحها الإنسان. وفي كل مرة كانت الاكتشافات العلمية تكشف أن ما كان يعتقد أنه من قبيل "الحقائق" ما هو إلا معتقدات خاطئة، وأن الكون ليس كما كان يعتقد.

---

4 Kant, Immanuel. *Critique of Judgment*, Translated and Introduction by Werner S. Pluhar. Indianapolis: Hachett, 1987, p. 111-112.

5 ويلجأ بعض المؤلفين العرب إلى استخدام المصطلح بالعربية "رؤية العالم وإلى جانبها اللفظتان المقابلتان الإنجليزية والألمانية.

6 Dewitt, Richard. *Worldviews: An Introduction to the History and Philosophy of Science*, Cornwall, UK: Blackwell Publishing. 2004.

ومع ذلك فإن التغير الذي يطرأ على رؤية العالم في كل مرة، يتفاوت من انقلاب كامل في الرؤية الكلية وفي التفاصيل -كما حصل في "الانقلاب الكوبرنيكي-" إلى تعديل في بعض التفاصيل وتغيير في مواقعها ضمن الرؤية الكلية التي تحتفظ ببعض ملامحها الأساسية؛ كما حصل في التعديل الذي اقتضاه نقض مفهوم الزمن المطلق والمكان المطلق بعد النظرية النسبية... ومع ذلك فإن أثر الاكتشافات التي تغير أو تعدل في رؤية العالم، تتجاوز التغيير في مفاهيم أو حقائق محددة، إلى تغيير في معتقدات الإنسان حول نفسه وموقعه في المكان؛ فالأثر الأكبر لهذه التغييرات هو في الكشف عن القدر الذي يمكن للإنسان أن يكون فيه على خطأ في مسائل بدت له فيما بعد واضحة تماما، ومن ثم ضرورة إعادة التفكير باستمرار في درجة الثقة بالصورة التي نكونها عن العالم من حولنا.[7] وليس من المستغرب أن تكتشف الأجيال القادمة من العلماء أن كثيرا من معتقداتنا الحالية حول العالم هي من الخطأ الذي يوازي الخطأ الذي كانت تمثله الرؤية الأرسطية، وأن النظر في سلوك الأشياء على المستوى الأصغر عن طريق الأجهزة التي تدرس سلوك الفوتونات والإلكترونات سوف يحدث تغييرا في رؤيتنا عن العالم لا يقل عن التغيير الذي أحدثه النظر إلى الأجرام السماوية الكبيرة عبر ميكروسكوب غاليليو.[8]

وهذا البعد الطبيعي من رؤية العالم يتداخل كثيرا مع معتقدات الإنسان الدينية والأخلاقية، فما سجله التاريخ المكتوب عن الأساطير الإغريقية وسكان وادي النيل وما بين النهرين، كان يغلب الرؤية الوثنية التي تعتقد بتعدد الآلهة والصراع والتنافس بينها من جهة وبينها وبين الإنسان من جهة أخرى على مجالات النفوذ، وبخاصة مصادر القوة والعلم والمعرفة.[9] ويتمثل هذا التداخل في ارتباط أسماء الآلهة ببعض النجوم والكواكب، وفي ارتباط الظواهر الكونية والفعاليات البشرية بمزاج الآلهة وما بينها من تنافس وصراع. ولذلك يبدو معقولا أن يكون الموطن الأرضي للإنسان هو مركز الكون، تدور حوله بقية أشياء الكون.

هذه بإيجاز خلاصة الفهم السائد في الأدبيات الغربية لتطور رؤية العالم ومصادرها الخاصة بالعلوم الطبيعية، ولكن هذا العرض الوصفي يقفز عن كثير من المعطيات التاريخية التي ربما تعطي تحليلا تفسيريا وتقويما مختلفا للمؤثرات العلمية، والدينية، والظروف الاجتماعية (الموضوعية)، والظروف النفسية الذاتية لبعض الأفراد من العلماء والمفكرين الذين تركوا بصمات واضحة على مراحل تطور الرؤية السابقة. فقد ارتبطت الرؤية الدينية في الغرب المسيحي في مطلع عهدها بالرؤية الأرسطية والتراث الوثني اليوناني والروماني من حيث تصورها للكون، فتلوثت معاني التوحيد الذي جاء به الأنبياء، والتمييز الحاسم بين طبيعة الخالق الواحد المتعالي من جهة والإنسان المخلوق وغيره من المخلوقات من جهة أخرى، حتى أصبح بعض الأنبياء شركاء للخالق في بعض صفاته الإلهية والربانية، واكتسبت التصورات المحدودة والنسبية للبشر عن الكون ومكوناته صفة القداسة الدينية، وانحازت المؤسسة الدينية الرسمية لهذه التصورات النسبية. وما أن توالت الاكتشافات

[7] Ibid., p. 302.
[8] Ibid., p. 304.
[9] يمكن أن نتذكر في هذا السياق أسطورة بروميثيوس وقصة سرقة النار من الآلهة وتسليمها للإنسان.

العلمية التي تنقض تلك التصورات حتى انهارت قداسة الدين نفسه، فلم يكن الانقلاب على الرؤية الأرسطية مثلا مجرد تغير في فهم الكون، وإنما صاحب ذلك أيضا انتقال خصائص القداسة من الرؤية الدينية التي ثبت أنها كانت خاطئة إلى الرؤية العلمية الجديدة، وتدريجيا حل العلم الطبيعي محل الدين، وأصبح العلم الطبيعي هو العلم مطلقا، وما على أي موضوع من موضوعات البحث في قضايا الغيب (أو ما وراء الطبيعة) أو النفس، أو المجتمع، إلا أن يخضع لمعايير العلم الطبيعي ومناهجه الحسية التجريبية.

وليس غريبا في ضوء هذه الرؤية أن يجري التساؤل عن طبيعة العلوم الاجتماعية وهل تستحق فعلا أن تصنف ضمن العلوم، أم أنها مرحلة بدائية ربما تتعمق مفاهيمها ونظرياتها بمزيد من البحث حتى تنال شرف تصنيفها في العلوم!

ثالثا: استعمالات مصطلح رؤية العالم في العلوم المختلفة

يبدو أن الاستعمال الديني لمصطلح رؤية العالم غلب على الاستعمالات الأخرى. فما علاقة الرؤية الكونية بالتفكير الديني؟ وما أوجه الشبه والاختلاف بينهما؟ وما قيمة هذا النوع من المفردات والمصطلحات عند العاملين في المهن المختلفة، وعند الذين يريدون الحديث عن معنى الحياة كما يرونها؛ وعند المدرسين الذين يحاولون زرع التفكير في الرؤية الكونية في طلابهم؟

إن الصدام بين الطرق المختلفة في الوعي collision of consciousness كان عاملا محددا لملحمة التاريخ البشري منذ عهود النشأة الأولى. فهو صدام حول المبادئ الأولى؛ فالأفكار لها نتائجها، ومع ذلك فإن ثمة مستوى عميقا من إدراك الحقيقة، يجب النظر إليه عند محاولة فهم الاختلاف الأيديولوجي، الذي يقع في القلب من قصة الإنسان على هذه الأرض. ففي الوعي الديني يحتل الصدام بين رؤى العالم موقعا مهما في المعركة الروحية الخفية بين الحق والباطل، بين طاعة الله وطاعة الشيطان؛ وهي معركة تدور رحاها في عقول الناس وقلوبهم، ومن ثم في حياتهم ومصيرهم منذ بدء الوجود البشري. وليس ثمة ما هو أكثر أهمية من الطريقة التي يفهم فيها الإنسان خالقه ونفسه والكون الذي يعيش فيه وموقعه فيه. وهكذا فإن موضوع رؤية العالم هو فصل في تاريخ الأفكار، والتوجهات الأيديولوجية المتعددة مثل: التوحيد، والوثنية، والطبيعية، والربوبية، ووحدة الوجود.

ومن الواضح أن الدلالات التي يشير إليها مصطلح "رؤية العالم" تتداخل بشدة مع المعتقدات الفلسفية، والدينية. فالمصطلحات الدينية مثل: الإيمان والعقيدة والتصور الكلي تعبر عن مجموعة الأفكار والمفاهيم والمعتقدات التي تجيب عن الأسئلة الوجودية الكبرى التي يحاول مصطلح رؤية العالم التعرض لها. وربما تكون المراجع الرئيسة التي تتحدث عن رؤية العالم صادرة في معظمها عن مؤسسات دينية أو كتبت لأغراض التعليم الديني. ولعل أهم الكتب الحديثة في هذا السياق الكتاب الذي ألفه ديفيد نوجل[10] وهو أستاذ

---

[10] Naugle, David K. *WorldView: The History of A Concept*, Grand Rapids, MI: William Eerdmans, 2002.

الفلسفة في جامعة دالاس المعمدانية في مدينة دالاس، بولاية تكساس الأمريكية، وهو كتاب شامل في موضوع رؤية العالم أو الرؤية الكونية، استعرض فيه تاريخ المفهوم وتطوره منذ مراحل مبكرة في الفكر الفلسفي والديني. ولاحظ أن هذا المفهوم قد احتل في العقود الثلاثة الأخيرة موقعا مهما في التعبير عن الكيفية التي يفهم فيها المسيحيون العالم. ولم يقتصر جهد المؤلف على التتبع التاريخي لجذور المفهوم، بل اشتمل على تطوره حتى أصبح يستعمل على نطاق واسع في الخطاب الفكري لعدد من العلوم المعاصرة، وبخاصة التاريخ والفلسفة واللاهوت. وقد بذل المؤلف جهدا كبيرا في تخليص مفهوم رؤية العالم من الدلالات النسبية التي حملها الفكر الفلسفي والعلمي الحداثي، بعد هجرته إلى دائرة الخطاب الديني المسيحي. هذا الجهد يعد جهدا مهما في "تنصير" مفهوم رؤية العالم، أو التطبيع المسيحي له؛ Christian Naturalization. وبهذا الإطار للفهم يحمل مفهوم رؤية العالم معنى مسيحيا، ويتخلص من الدلالات الضارة للجذور التاريخية، وبهذه الطريقة من عملية التنصير أو التطبيع المسيحي يحمل المفهوم هوية جديدة ويصبح مفهوما مفيدا في خدمة الكنيسة ومقبولا من رب الكنيسة.[11]

وقد أشرف باحثان في جامعة الوحدة union university في جاكسون بولاية تنيسي، وهي أيضا جامعة دينية مسيحية، على إعداد كتاب عن "تشكيل رؤية العالم المسيحية" تضمن مجموعة من البحوث التي تعرض القضايا الأساسية المتعلقة بمستقبل التعليم العالي المسيحي، من خلال رؤية كلية تجمع بين الالتزام بالإيمان الديني وعمل العقل والتقاليد الأكاديمية، وقد أعد هذه البحوث عدد من الشخصيات العلمية الرئيسة في ميدان هذا التعليم.[12] وفي أحد فصول هذا الكتاب يتحدث أنتونيو تشياريلي عن خبرته حول موقع التفكير الديني في موضوعات العلوم الاجتماعية، مؤكدا أن المناخ العلماني المعادي للدين هو السائد، وبخاصة في أقسام علم الاجتماع في كثير من الجامعات ومراكز البحث. ويعبر عن الإحباط الذي يشعر به نتيجة غياب رؤية العالم الدينية المسيحية عن الثقافة الأكاديمية العامة في العلوم الاجتماعية.[13] ومن ثم فإن الباحث يدعو إلى أن تتولى مؤسسات التعليم الجامعي المسيحي مهمة التكامل بين التفكير الديني والعلوم الاجتماعية، مؤكدا أن هذه العلوم توفر أساسا رائعا في المجال النظري والعملي "الإمبريقي" للدمج بين منهجية مؤسسة على الكتاب المقدس مع منهجية دراسة العالم الاجتماعي الذي نعيش فيه، ضمن مقولة: قراءة العالم من خلال قراءة الكلمة."[14]

---

[11] Ibid., 289-290.

[12] Dockery, David; and Thornbury, Gregory Alan. *Shaping A Christian Worldview: The foundation of Christian Higher Education.* Nashville, Tennessee: Broadman and Holman Publishers, 2002

[13] Chiareli, Antonio A. Christian Worldview and the Social Science, in: *Shaping A Christian Worldview: The Foundation of Christian Higher Education*, Edite by Dochery and Thornbury, Nashville, Tennessee: Broadman and Holman Publishers, 2002, p. 240-263.

[14] يشير الباحث في هذا المقام إلى أن هذه المقولة تعود إلى المفكر التربوي البرازيلي باولو فيريري "Read the world by reading the Word" وكان يريد بها تعليم أولاد الفقراء كيفية القراءة من أجل أن يتمكنوا من معرفة العالم وتغييره. لكن السياق الذي استخدمت فيه هذه المقولة على نطاق واسع هو "قراءة كلمة الله لفهم العالم" أو "فهم العالم من خلال المنظور الديني." انظر المرجع السابق ص. 421. والنص قريب من

وفي كتاب يمتلئ بالحماس الديني المسيحي حدد رونالد ناش ثلاث رؤى للعالم معروفة في عالم اليوم، وبخاصة ما يسود في الغرب، هي المسيحية، والمادية الطبيعية، وحركة العصر الجديد.[15] ومع أن رؤية العالم المسيحية في رأي المؤلف هي التي يتوقع أن تسود الولايات المتحدة الأمريكية، فإنها تواجه تحديا كبيرا من رؤية العالم الطبيعية التي كانت أساس الرؤية الماركسية التي سادت لدى قطاعات كبيرة من الناس معظم القرن العشرين. أما التحدي الآخر فهو ما تمثله رؤية العهد الجديد التي لا تتناقض مع الرؤية الطبيعية فحسب، وإنما تتناقض أيضا مع كل ما يؤمن به المسيحيون. ويخشى المؤلف أن تملأ هذه الحركة الفراغ الذي خلفته الماركسية في العالم. ولذلك فإنه يدعو إلى رفع مستوى وعي الذات حول رؤى العالم بوصف ذلك جزءا أساسيا من النضج الفكري، حيث إنه "على قناعة بأن قليلا من الأمريكيين قد تعلموا كيف يفكرون برؤية العالم، ولا يدركون محتوى رؤية العالم التي يمتلكونها حتى لو كانت حياتهم تعتمد عليها."[16]

ومع أن طريقة المؤلف في عرض أفكاره في الكتاب تمتلئ بالحماسة وتستخدم مفردات الصراع في ميدان المعركة، باعتبار أن "رؤية العالم المسيحية هي وسيلة الانتصار في معركة عالم الأفكار"، فإنه يؤكد بأن التفكير في موضوع الدين بطريقة أخلاقية وروحية لا يكفي، ويلزم التزود بالبنية الفكرية اللازمة للانتصار في هذه المعركة: "لأن كثيرا من قضايا التدين تعرض على أنها معارك يعيشها الإنسان ولا يرغب في أن يخسر فيها، ولذلك سيكون من المفيد له أن يعد نفسه لأداء أكثر فاعلية في عالم الأفكار..."[17]

ويرى نينان سمارت[18] أننا نعيش اليوم في عصر ديني جديد، ومن أجل أن نفهم معتقدات الناس ومشاعرهم وممارساتهم جيدا يلزمنا أن نفهم الأديان التقليدية ونفهم الأيديولوجيات الحديثة، باعتبارها صورا مختلفة من رؤية العالم، وأن منهج دراستها الملائم هو منهج "تحليل رؤية العالم" worldview analysis، لكن رؤى العالم هذه ليست إلا "معتقدات إنسانية عبر ثقافية" crosscultural human beliefs وأن دراستها تعد تمهيدا مناسبا للدراسات الحديثة للدين من منظور إنساني. فالأيديولوجيات الحديثة مثل القومية والإنسانية والماركسية رغم خلافها الجذري مع الدين، فإن الالتزام بها والاستناد إليها لا يختلف عما يعطيه

المقولة التي شاعت في الكتابات الإسلامية المتأخرة: الجمع بين القراءتين: قراءة القرآن وقراءة الكون، او قراءة الكتاب المسطور وقراءة الكتاب المنظور.

15 Nash, Ronald. *Worldviews in Conflict: Choosing Christianity in a World of Ideas.* Grand Rapids, MI: Zondervan Publishing House, 1992.

ورغم أن المؤلف حدد معايير معينة لإثبات صحة معتقدات رؤية العالم المسيحية ونقض مقولات رؤى العالم الأخرى، إلا أنه اعترف بأنه عانى صعوبة كبيرة في كتابة أحد فصول الكتاب المتعلقة بأن الإيمان المسيحي يتناقض منطقياً لإصراره على أن المسيح (عليه السلام) هو إله كامل وإنسان كامل في الوقت نفسه. فقد مثلت هذه القضية تحدياً معقداً لم يكن من السهل عليه معالجته ببساطة ومسؤولية في آن واحد. ومع ذلك فإنه ينصح القارئ بأن يقفز عن هذا الموضوع الذي عالجه في الفصل الخامس من الكتاب "لأن الفرد يستطيع أن يعيش حياة غنية وكاملة وسعيدة دون فهم أي قضية من قضايا هذا الفصل." (ص. 11)

16 Ibid., p. 9.

17 Ibid., p. 10.

18 Smart, Ninian. *Worldviews: Crosscultural Explorations of Human Beliefs*. New Jersey: Prentice Hall. 2000.

أهل الأديان من قداسة والتزام. وهذه الطريقة في دراسة الأديان والأيديولوجيات تقدم بديلا "موضوعيا" لدراسة الأديان –في نظر المؤلف– أفضل مما يتم في الجامعات الدينية التي يقتصر عملها على تدريب رجال الدين والمتخصصين بدراسة الأديان.

وحاول المؤلف في كتابه عرض القوى الرئيسة المشكلة للمعتقدات والمشاعر التي تؤثر في عالم اليوم، مؤكدا أن مفهوم رؤية العالم يمتلك دورا رئيسا في الوجود الإنساني، وأن لهذا الدور بعدا مهما في تشكيل الخبرة الكلية للإنسان، إضافة إلى الأبعاد الخاصة بالعقيدة والأخلاق وممارسة الطقوس والبعد الاجتماعي. وقد أشار الكتاب إلى أن العلوم الاجتماعية في سعيها لدراسة أثر الدين في حياة المجتمعات البشرية، ودراسة أثر التغيرات التي طرأت على هذه المجتمعات في تشكيل الوعي الديني، يمكنها أن تسهم في استشراف مستقبل الدين في هذه المجتمعات، وأن الرؤية الكونية التي يقدمها الدين عن حياة الناس أخذت تنشر نوعا جديدا من وعي الذات ووعي العالم.[19]

ومن اللافت للنظر أن عددا من العلماء الذين نبغوا في ميدان العلوم الطبيعية تحولوا فيما بعد إلى الاهتمام بقضايا تاريخ العلوم وفلسفة العلوم ومن ثم إلى العلوم الاجتماعية. واللافت للنظر في هذه الحالات أن مفهوم رؤية العالم قد مثل بؤرة اهتمام في هذا التحول. وأن بلورة هذا المفهوم كانت أيضا نتيجة لهذا التحول. وقد أخذ بعض هؤلاء العلماء الفلاسفة نصيبا ملموسا من الاهتمام كما هو الحال مع أينشتاين وبلانك وشرودنجر ومحمد عبد السلام. لكننا سوف نعرض لاثنين من هؤلاء العلماء كان حظهما من الاهتمام يسيرا. الأول منهما هو الطبيب الهنغاري المولد مايكل بولاني (1976–1891) الذي ترك ممارسة الطب ليصبح باحثا مشهورا في الكيمياء الفيزيائية، وقد ترك تراثا خصبا من البحوث في هذا الموضوع، لكنه اهتم لاحقا بقضايا الاقتصاد ونظرية المعرفة، واستقر أخيرا أستاذا للعلوم الاجتماعية في مانشستر ثم في أكسفورد ببريطانيا. وقد كان وراء هذا التحول عند بولاني ما رآه من التدمير الذي أصاب أوروبا في الحربين العالميتين، وأثر في المناخ الروحي والفكري، ونتج عنه تدهور الأسس الأخلاقية التي قامت عليها أوروبا. وقد رأى بولاني أن السبب في ذلك هو رؤية العالم "العلمية" التي شكلت النمط العقلي للغرب، تلك الرؤية المتجذرة في الفلسفة الوضعية الخالية من الأساس الأخلاقي.

وقد ارتبط اسم بولاني بعدد من الأفكار النفسية والفلسفية، حيث طور مفهوم المعرفة الشخصية والبعد الضمني من الإدراك البشري Tacit Knowledge. فالمعرفة عنده ذات طبيعة شخصية؛ بمعنى أنها متجذرة في البعد المتضمن في الإدراك البشري، وقد شبه فكرة المعرفة الضمنية "بجبل الثلج في المحيط الذي نرى منه ما يكون فوق سطح الماء مع العلم بأن الجزء الأكبر من المعرفة يكون خفيا عن الأنظار تحت سطح الماء. وهذا الجزء الخفي هو الذي يؤثر بقوة في تشكيل عملية التعرف. فها هنا قاعدة غير منظورة في بنية

[19] Ibid., 144.

الفكر البشري، ولذلك فإننا نعرف أكثر بكثير مما نستطيع أن نتحدث عنه."[20] "فنحن بوصفنا بشرا يجب علينا –لا محالة– أن نرى الكون من مركز يقع في داخلنا ونتحدث عنه بلغتنا البشرية، وأي محاولة لحذف منظورنا البشري من الصورة التي نكونها عن العالم فإنها لا تقود إلا إلى الغموض."[21]

و"توماس كون" 1922 – 1996 المثال الثاني لهذه النوعية من العلماء الفلاسفة، فقد بدأ حياته المهنية باحثا في الفيزياء النظرية، عندما أخذ يتأمل في الأحداث التاريخية التي مثلت محطات مهمة في نمو المعرفة العلمية وتقدمها، فانصرف اهتمامه إلى تاريخ العلوم ثم إلى فلسفة العلوم. وقد تأثر "كون" بأعمال جيمس كونانت حول تاريخ العلوم وفلسفة العلوم،[22] لكنه أي "كون" يعترف بأن أعمال "بولاني" حول المعرفة الشخصية والمعرفة الضمنية قادته إلى النتائج "الغريبة" التي توصل إليها.[23]

وبنيت أفكار "كون" على مفهوم النموذج القياسي Paradigm والثورات العلمية. فهو يرى أن طبيعة العقل العلمي تمارس البحث العلمي دائما ضمن حدود نموذج قياسي يمثل رؤية للعالم تتصف بالشمول والعلمية والمنهجية والميتافيزيقية. فرؤية العالم في نظر "كون" هي جوهر النشاط العلمي، فهذه الرؤية تؤدي دورا حاسما في الممارسة العلمية، فهي تحدد صلة البيانات ومحتوى المشاهدات وأهمية المشكلات وقبول الحلول، بل وأكثر من ذلك، فإن رؤية العالم تزودنا بالقيم والمعايير ومناهج البحث، وباختصار فكل نموذج يحدد الطريقة التي يسير فيها العلم، إنها رؤية شاملة للعالم.

وتحدث الثورات العلمية من ممارسة العلم العادي وفق النموذج القياسي السائد؛ لأن الممارسة العادية يرافقها عادة حالات شاذة تكون فيما بعد نقاط انطلاق للتغيير والثورة، فهذه الحالات الشاذة تقود إلى اكتشاف ظواهر جديدة غير متوقعة أو أشياء لم تكن معروفة؛ الأمر الذي قد يقود في النهاية ليس إلى تطوير النظريات التفسيرية بل إلى لفظها ووضع نظريات جديدة بدلا عنها، أي أنه في بعض الأحيان عندما لا تعود النماذج القياسية قادرة على الفعل فإنها تصبح مبشرات بالتحولات القادمة، فيحدث الانقلاب في النماذج أو الثورات العلمية، وقد ارتبطت الثورات العلمية في الغرب بأسماء مثل كوبرنيكس، نيوتن، لافوازييه، داروين، دبور، وأينشتاين.

وهكذا فإن التقدم في العلم –وفق "كون"– ليس نتيجة التراكم الخطي وإنما نتيجة التغيرات الجذرية التي تستبدل فيها نظريات جديدة بنظريات سابقة فقدت قدرتها على التفسير. "ففي كل ثورة علمية يرفض المجتمع العلمي نظرية علمية كانت موضع الاعتبار، لصالح نظرية جديدة مختلفة عنها. وكل ثورة تنتج تحولا تاليا في المشكلات التي تطرح للبحث العلمي، وفي الطريقة التي تقرر بموجبها الجماعة العلمية، أن هناك

---

[20] Polanyi, Michael. *The Tacit Knowledge*, Now York: Doubleday, 1966, p.4

[21] Polanyi Michael. *Personal Knowledge: Towards a Post-Critical Philosophy*, Chicago: University of Chicago Press, 1962, p. 3.

[22] Kuhn, Thomas. *The Structure of Scientific Revolution*, 2nd Enlarged Edition, Chicago: University of Chicago Press, 1970, p. xi

[23] Ibid., p. 4

مشكلة تبرر البحث عن حل لها. وكل ثورة تبدل الخيال العلمي بطرق نحتاجها لتوضيح التحول في رؤيتنا للعالم الذي جرى فيه هذا العمل العلمي. وهذه التحولات، وما يرافقها من جدل، هي الخصائص المميزة للثورات العلمية.[24]

ويستند "نوجل" إلى فكرة النماذج القياسية التي طورها "توماس كون" في البرهنة على مصداقية الفكر الديني، الذي يدعو إلى الاعتراف بدور النموذج الفكري ورؤية العالم التي يحملها المفكر في تشكيل الوعي الإنساني، وأثره في نشاطه الفكري والنظريات التي يصوغها بما في ذلك العلوم الطبيعية، ومن ثم يدعو العالم المؤمن إلى أن يعي الافتراضات الأساسية لرؤية العالم التي يقدمها له إيمانه الديني، ويعطي لها دورها اللازم في جميع صور التفكير النظري، ومع ذلك فإنه يستدرك ليقول بأن النماذج النظرية ورؤى العالم لا تفسر كل شيء، فمع أن تلك النماذج ليست كاملة القوة من الناحية العلمية، ومع أن رؤى العالم ذات سلطة مرجعية فإنها ليست استبدادية في أثرها الفكري، فكان لا بد من التساؤل حول إمكانية توافق جميع العلماء والمفكرين على أرضية مشتركة، وإيجاد بعض نقاط الاتصال في طرقهم ونتائجهم، ويقول أيضا: إن رؤى العالم -دون شك- محددات أكاديمية، لكن الأثر الذي تلعبه يمتد على مدى متصل حسب العلاقات الحيوية القائمة مع خصائص الباحث العالم، ومحتوى رؤيته للعالم، وطبيعة الموضوع الذي يبحث فيه.[25]

يتضح من العرض السابق أن المفكرين يستخدمون مصطلحات ومفردات لغوية محددة للتعبير عن مفاهيم الناس ومعتقداتهم وطرق تفكيرهم، وهذه المصطلحات تمثل أدوات منهجية تفيد في فهم العوامل التي تحدد الكثير من الظواهر الثقافية والاجتماعية. وقريب من مفهوم النموذج القياسي ل "كون" -وليس مطابقا له- يستخدم عبد الوهاب المسيري "النموذج التفسيري" الذي يتحدد في "مجموعة من الصفات التي تحولت إلى صورة متماسكة، ترسخت في أذهاننا ووعينا، بحيث لا نرى الواقع إلا من خلالها؛ فهي رؤية متكاملة للواقع." هذا النموذج التفسيري هو خريطة معرفية يبنيها العقل الإنساني، ويتوصل إليها عن طريق تجريد كم هائل من العلاقات والتفاصيل والحقائق والربط بينها، لبناء نمط عام يأخذ شكل خريطة إدراكية كلية. هذا "النموذج الإدراكي" هو أداة الإنسان في إدراك الواقع، لكنه يتم "في أغلب الأحيان بصورة غير واعية يستنبطها المرء تدريجيا وتصبح جزءا من وجدانه وسليقته وإدراكه المباشر، من خلال ثقافته وتفاصيل حياته، وما يتشكل منه عالمه من أشياء ورموز وعلامات وصور وأحلام ومنتجات حضارية متعددة." ويتزاوج مع النماذج الإدراكية "نماذج تحليلية" إبداعية واعية يصوغها الباحث من خلال قراءته للنصوص المختلفة، وملاحظته للظواهر، ثم يقوم بتفكيك الواقع وإعادة تركيبه من خلالها، بحيث يصبح الواقع أو النص مفهوما مستوعبا بشكل أعمق. وتعمل النماذج التحليلية على توسيع نطاق النموذج التفسيري من خلال الظواهر والمعطيات التي يحاول النموذج أن يفسرها. فهذه المعطيات تتحدى النموذج وتكشف قصوره، وربما يلزم

---

[24] Ibid., pp.111-135.

[25] Naugle, David K. *WorldView: The History of A Concept*, Grand Rapids, MI: William Eerdmans, 2002, p. 207-208

تعديل النموذج حتى تزداد قدرته التفسيرية، وهكذا فإن العلاقة بين النموذج التفسيري والواقع علاقة حلزونية معقدة.[26]

رابعا: علاقة العلوم الاجتماعية برؤية العالم:

الحديث عن العلوم الاجتماعية في سياق هذه الورقة هو حديث عن العلوم التي تتعلق بالإنسان فردا وجماعة، وبشيء من التحرر في استعمال المصطلح نود أن يشمل الحديث العلوم الحديثة التي لا تقع ضمن ميدان العلوم الطبيعية والتقانية من جهة، ولا ضمن العلوم النقلية أو الشرعية من جهة أخرى. وبهذا التحديد فإننا نتحدث عن بقية العلوم المعروفة بالعلوم الاجتماعية مثل التاريخ وعلم الاجتماع وعلم الأنثروبولوجيا وعلم الاقتصاد وعلم السياسة وعلم النفس وغيرها، إضافة إلى ما يعرف بالإنسانيات مثل علوم الفلسفة والآداب واللغات والفنون. وآية ذلك أن مشكلة الإنسان في العالم، قديما وحديثا تتعلق بالنظام الاجتماعي العام؛ فمنذ أن هبط الإنسان على هذه الأرض، وبدأ البشر يتجمعون معا ويقيمون فيما بينهم وحدات اجتماعية تلبية لمتطلبات الفطرة التي خلقوا بها، أخذت الحياة الاجتماعية تستوجب تنظيما للعلاقات وفق مصالح العيش المشترك، وما يتطلبه من سعادة واستقرار. وقد رافقت الهداية الإلهية الإنسان منذ بدء خلقه، لذلك كانت الفكرة الدينية أساسا لبناء النظام الاجتماعي، ومع ذلك فإن عوامل النسيان والطمع في تحقيق المصالح الشخصية والفئوية سرعان ما كانت تطرأ على الواقع الاجتماعي وتنشأ لذلك تفسيرات منافسة للفكرة الدينية، وتتغلب عليها.

ولو استعرضنا الأنظمة الاجتماعية السائدة اليوم على اختلاف صورها وحاولنا تلمس المبدأ الذي تقوم عليه، فإننا سنجد أن الفكرة المادية هي الأساس الذي يجمع بين مختلف المدارس الفلسفية التي تحاول بسط نفوذها. وقد تعمقت جذور هذه النزعة المادية واتسعت ميادين تأثيرها، منذ الانقلاب الصناعي في أوروبا الغربية نتيجة عدد من العوامل منها: نجاح المنهج التجريبي في الكشف عن الكثير من حقائق الكون والتطبيقات العملية لهذا المنهج، وانتشار عقلية الشك في كل ما اعتاد الناس رؤيته من البدهيات والأمور الواضحة، وانحسار الثقة بالدين ورجاله الذين اعتادوا الوقوف إلى جانب السلطات الظالمة والفئات الفاسدة، والحجر على حرية التفكير. وزاد الطين بلة شيوع نظرية التطور التي نزعت عن الإنسان خصائصه واعتبرته حلقة متقدمة من حلقات التطور العضوي للمادة.

إن النزعة المادية هي التي تسود العالم اليوم، وتحاول القوى المهيمنة أن تبسطها في أرجاء العالم بالترغيب والترهيب. وسيكون من المفيد دراسة جذور النزعة المادية وتطورها وأخطارها وتحليل الأنظمة الاجتماعية التي قامت على أساسها بصورة واضحة مباشرة، أو بصورة ضمنية، لكن هذا ليس هو موضوع هذه الورقة؛ إذ سنكتفي في هذا المقام بالبحث عن القاعدة التي تستند إليها العلوم الاجتماعية المعاصرة،

---

[26] المسيري، عبد الوهاب. **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر: سيرة غير ذاتية وغير موضوعية**، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2000، ص274-279.

ذلك أن هذه القاعدة تقوم على النظرة الكلية والتصور العام عن الكون والحياة، وعلى طريقة التفكير التي يمارسها العلماء في توليد المعرفة الاجتماعية واختبارها وتوظيفها.[27]

وقد تحدث الكثير من المفكرين عن أهمية التصور العام للكون، لأن هذا التصور يقدم تفسيرا شاملا للوجود يحدد مركز الإنسان في الوجود الكوني وغاية حياته الإنسانية، ومن ثم منهج حياة الإنسان ونوع النظام الذي يحقق هذا المنهج، "فنوع النظام الذي يحكم الحياة الإنسانية رهين بذاك التفسير الشامل..."[28] وسوف لن نبالغ في تقدير أهمية مفهوم "رؤية العالم"، إذا أدركنا درجة تأثير الطرق الأساسية التي ندرك فيها العالم الذي نعيش فيه وموقعنا فيه، في فهمنا للعلوم الطبيعية والاجتماعية.

ويشير تاريخ المعرفة الإنسانية إلى أن العلوم المعروفة اليوم لم تنشأ بصورة متمايزة ومستقلة، بل كانت تقع ضمن ميدان واسع من الخبرة الإنسانية، كانت الفلسفة تعبيرا عاما عنه، فكان المفكرون والعلماء هم الفلاسفة، وكان الفيلسوف أو الحكيم يملك معرفة موسوعية تتداخل فيها موضوعات نصنفها اليوم ضمن علوم الفلك والرياضيات والفيزياء وعلم النفس والطب... وغيرها. وكان الفيلسوف يجمع بين طرق التفكير العقلي: الاستقراء والقياس، والطرق الحسية والتجريبية.

ومع تطور المعرفة البشرية أخذت العلوم تتمايز وتستقل عن الفلسفة، وأخذ العلماء يميلون إلى التخصص في عدد محدد من الموضوعات العلمية، ثم في موضوع واحد أو فرع واحد من الموضوع. وقد رافق تمايز هذه العلوم المتخصصة تبدل في طبيعة التفكير وآلياته؛ فبينما كان منهج التفكير العقلي هو السائد في مرحلة الفلسفة، أخذ المنهج التجريبي يسود عمل المفكرين والعلماء. ولو نظرنا إلى الأسئلة التي تطرحها رؤية العالم فإننا سنجد أنها ذات طبيعة تتجاوز موضوعات العلوم المحددة وتخرج عن نطاق مناهج التفكير الحسي والتجريبي، ومن ثم فإن إجاباتها تبقى بحاجة إلى تفكير عقلي فلسفي.

ومع أن معظم مذاهب الفكر المعاصرة لا ترضى بالفلسفة كيانا مستقلا عن العلوم، يقوم على أساس الطريقة العقلية، فإن هذه المذاهب قد طورت ميادين علمية ذات طبيعة فلسفية علمية مهمتها "الكشف عن العلاقات والروابط بين العلوم، ولوضع نظريات علمية تعتمد على حصيلة التجربة في مجموع الحقول العلمية، كما أن لكل علم فلسفته التي تقرر أساسيات البحث العلمي في مجاله الخاص..."[29]

ومن الواضح أن بعض الميادين المعرفية تتأثر برؤية العالم أكثر من غيرها، وبعبارة أخرى فإن التضمينات المعرفية لرؤية العالم تتفاوت من حقل معرفي إلى آخر. فرؤية العالم تبدو أقل تأثيرا (لكنها ليست معدوم التأثير تماما) في العلوم الدقيقة، لكنها أكثر تأثيرا في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية والفنون الجميلة. فأثر رؤية الحياة في الكيمياء مثلا أقل منه في التاريخ، وفي الرياضيات أقل بكثير من الفلسفة، ولكن عندما ينصب الاهتمام على فلسفة الكيمياء أو الرياضيات فإننا نكون قد تركنا جانبا ممارسة العلم إلى مبادئ العلم.

---

[27] الصدر، محمد باقر. **فلسفتنا**، ط5، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، 1989، ص. 46-47.

[28] قطب، سيد. **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، ط9، القاهرة: دار الشروق، 2000، ص.6.

[29] الصدر، محمد باقر. **فلسفتنا**، مرجع سابق، ص 85.

وكلما كان كلامنا عن رؤية العالم فيما يتعلق بالعلوم اللينة وليس القاسية، تتضاعف حاجتنا إلى الجدل النقدي حول طرق هذه العلوم ونتائجها. ومع أن الخلاف بين علماء الطبيعة أقل حدة رغم الاختلاف في رؤية العالم، فإن الخلاف بين علماء الاجتماعيات والإنسانيات أكثر حدة بسبب الاختلاف في رؤية العالم، ذلك أن رؤى العالم باعتبارها وصفا "عبر ثقافي" للمعتقدات الإنسانية crosscultural human beliefs "تتعلق بمعرفة الآخرين، وهي معرفة تقع في القلب من التعليم الإنساني والعلوم الاجتماعية."[30]

والسبب في ذلك أن رؤية العالم تتعلق بالحقائق والأسئلة الأساسية حول معنى الكون. وكلما كان المجال المعرفي أقرب إلى معاني هذه الأسئلة والحقائق، فإن رؤية ا لعالم تكون أكثر أثرا في بناء النظريات في هذا المجال المعرفي، فالتخصص العلمي الأقرب إلى مركز الوجود (الإلهي المقدس) يبقى أكثر تأثرا بالالتزامات النهائية التي تفرضها رؤية العالم على ذلك التخصص. وبهذا يكون علم الكلام الذي تفرضه رؤية العالم (الثيولوجيا) أكثرها تأثرا تليه الفلسفة، ثم الإنسانيات، فالآداب، فالعلوم الاجتماعية، ثم العلوم الطبيعية، وأخيرا تأتي الدراسات الرمزية كالرياضيات والقواعد والمنطق.

إن أحد وجوه الأزمة في العلوم الاجتماعية السائدة في العالم الإسلامي، أن هذه العلوم لم تبن على أساس ما ولدته الأمة من علوم. ففي وقت مبكر من تطور الحركة العلمية في الدولة الإسلامية، أخذ هذا التطور مسارا غير متوازن؛ فقد نمت العلوم والمعارف في خدمة النص الشرعي، وتضخم فقه العبادات والدراسات اللغوية والبيانية، وانحصر نمو فقه المعاملات في ميادين محدودة تتعلق بالسلوك الفردي ومسائل الأحوال الشخصية، ولم يتح للشأن العام على نطاق المجتمع والأمة إلا القليل من الجهد، وأهملت المناهج الإمبيريقية في وصف الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنفسية وتحليلها، ولذلك لم تتمكن من تطوير المفاهيم والمبادئ والنظريات التي تؤسس لعلوم اجتماعية متخصصة. وقد يكون الاستبداد السياسي وما رافقه من عزلة العلماء أو انعزالهم واحدا من الأسباب التي تفسر عزوف غالبية القيادات العلمية والفكرية في المجتمع عن الاهتمام بالشأن العام، وحرمان الأمة من طاقة هذه القيادات وقدرتها على تطوير المعارف والعلوم التي كان يمكن أن توجه "مسيرة حياة الأمة ومؤسساتها الاجتماعية وإمدادها بالحلول والبدائل الحضارية اللازمة لمواكبة إمكاناتها وحاجاتها والتحديات التي تواجهها."[31]

لكن الأمر الذي ربما فاق هذا السبب في الحيلولة دون تطور العلوم الاجتماعية في العالم الإسلامي في وقت مبكر، هو تفاقم صور التشوه التي طرأت على فكر الأمة الإسلامية وثقافتها وأعاقتها عن تحقيق المشروع الحضاري الذي بدأته وانطلقت به في عهد الرسالة والخلافة الراشدة، فلم يبلغ المشروع أهدافه وغاياته. و"أول هذه التشوهات وأخطرها كان تشوه الرؤية الكونية الإسلامية التي تشكل إطار فكر الأمة وثقافتها؛ بحيث لم تعد رؤية كونية توحيدية شمولية إيجابية قادرة على أن تقدم الدليل والهداية الكلية لفكر

---

30 Smart, Ninian. *Worldviews: Crosscultural Explorations of Human beliefs*, New Jersey: Prentice Hall, 2000, p. xi.

31 أبو سليمان، عبد الحميد. **أزمة العقل المسلم**. هيرندن، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1991، ص.82.

المسلم وضميره وعلاقاته ونظمه."[32] ذلك أن تشوه الرؤية الكونية أورث تشوها منهجيا، نتج عنه نظرة أحادية غير متوازنة إلى العلوم والمعارف، حين قسمها إلى علوم دينية مهمة، وعلوم دنيوية هامشية، فضمر الفكر وغابت النظرة السننية "مما حرم الأمة من نمو العلوم الاجتماعية التي تتكامل مع كليات الوحي وهدايته في ترشيد الحياة الاجتماعية الإسلامية، وتجديدها وتطوير مفاهيمها ومؤسساتها وطاقاتها وإمكاناتها مع تطور المعرفة والإمكانات والتحديات."[33]

إن العلوم الاجتماعية، كما يوحي بذلك اسمها، كانت على الدوام مرتبطة بما يتعلق بالإنسان، والغموض المرتبط بكون الأفراد الإنسانيين يدرسون الأفراد الإنسانيين جعل من الصعوبة أن نعطي مرجعية وسلطة لاكتشافات وقوانين -يأتي بها المتخصصون في العلوم الاجتماعية- شبيهة بتلك النتائج التي تعطى لاكتشافات العلوم الطبيعية، فالعلوم الاجتماعية هي بالفعل حقول معرفية لينة تأويلية عانت دائما من حسدها للعلوم الطبيعية، وقلقة بخصوص مصداقية نتائجها وقيمة العمل في ميادينها.

لقد سعى العلماء إلى إعطاء العلوم الاجتماعية ما للعلوم الطبيعية من موقع ومكانة ومناهج، لكن أعمال "مايكل بولاني" و"توماس كون" قد غيرت من هذا الاتجاه، حين تبين حسب "كون" أن النماذج الفكرية ورؤى العالم وغيرها من العوامل الإنسانية والتاريخية تؤدي أدوارا مهمة في ممارسة العلم العادي وفي الثورات العلمية، ولذلك فإننا نتوقع أن يكون الأمر كذلك في العلوم الاجتماعية، فمع أن محتوى النوعية من العلوم مختلف فإنه يتم التحكم فيه، ولو جزئيا، بالعوامل البشرية، بما في ذلك رؤى العالم، وعلى هذا الأساس نشأ نوع من النظرة المتشابهة إلى نوعي العلوم اللذين كان ينظر إليهما على أنهما ثقافتان فكريتان متناقضتان تذكر بمقولة الثقافتين: The Two Culture.

ومع ذلك فثمة فرق بينهما، فممارسة العلم الطبيعي يمكن التحكم بها عن طريق نموذج فكري محدد، والنموذج الفكري نفسه ليس موضوع بحث عند العالم -مع أنه موضوع بحث عند المتخصص بفلسفة العلم- فعلماء الطبيعة يبحثون في العالم الطبيعي وليس البشري، في حين ينشغل العلماء الاجتماعيين بتحليل وفهم القوى الفكرية الفاعلة (مثل رؤى العالم) التي لا تطرق العمل في هذه العلوم فحسب، بل تؤثر وتشكل مكونا مهما في النفس البشرية "علم النفس"، والمجتمع "علم الاجتماع"، والثقافة "علم الأنثروبولوجيا." وبينما تكون رؤى الحياة والنماذج الفكرية على علاقة غير مباشرة وتأثير غير مباشر في العلوم الطبيعية فإنها تمثل شاغلا ظاهرا وهدفا للدراسة في العلوم الاجتماعية.

إن مجموعة الأسئلة المتعلقة برؤية العالم في العلوم الاجتماعية لا يمكن معالجتها بذاتها، دون أن يكون الباحث مستعدا لتحرير نفسه من المبادئ المنهجية للعلوم الطبيعية، لأنه في العلوم الطبيعية، حيث تكون

---

[32] أبو سليمان، عبد الحميد. **أزمة الإرادة والوجدان المسلم: البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة**، دمشق: دار الفكر، 2005، ص54.

[33] المرجع السابق، ص. 59-60.

المشكلات من هذا النوع مفقودة، لا تواجه إلا بشيء يسير مما يشبه الأنماط الفكرية التي علينا أن نتعامل معها في كل خطوة من طريقة البحث في العلوم الاجتماعية.

عقد مؤتمر في جراند رابيدز ميشجان عام 1985 بعنوان: "رؤى العالم والعلوم الاجتماعية" بهدف البحث في مشكلات رؤى الحياة في العلوم الاجتماعية، وقد تعامل المجتمعون مع رؤية الحياة بوصفها أداة تحليل لمساعدتهم على تحليل التنوع العلمي الواسع في العلوم الاجتماعية، وقدم المحرران لعمل المؤتمر نبذة تاريخية عن دور رؤية العالم في فهم العلوم الاجتماعية، ولاحظا أن تقدم دراسة رؤى العالم يمكن أن تعطي مؤشرات حول الكيفية التي تسعى بها النظرية الاجتماعية، لفهم صور التعدد في الواقع الاجتماعي المحلي والعالمي. واستذكر الباحثان الوصف الذي قدمه "دلثاي" في العقد الأول من القرن العشرين[34] فيما يتعلق بأزمة الحداثة وأنها "صدام بين رؤى العالم" Clash of World Views، كما أعطى "توماس كون" فكرة رؤية العالم موقفا خاصا في تفسير الثورات العلمية، وعلى ضوء هذه الرؤية يبدو أن ثمة اعترافا آخذا في الاتساع بالأثر الذي لا يتنازع لرؤى العالم. إننا نكتشف أن مشكلات الحياة ومشكلات العلم هي فروق فيما بيننا في رؤية العالم.

1. رؤية العالم وعلم الإنسان

يعد مايكل كيرني[35] واحدا من القلائل المتخصصين في علم الإنسان Anthropology، فقد اهتم بدراسة رؤية العالم بوصفها أحد مفاهيم العلوم الاجتماعية، ولكن رؤيته للعالم "الماركسية" جعلته يرى أن هذا المفهوم هو مفهوم محافظ متجذر في الثقافة البرجوازية الليبرالية الأمريكية. ويجادل بحدة من يتفادى تفسير البنى الثقافية في أي مجتمع دون التأكيد على العوامل المادية والاقتصادية، وأن تطور هذه البنى الثقافية نشأ نتيجة صراع الطبقات، ويشبه هؤلاء الذين يتجاهلون هذه العوامل بمن يكتب دراسة عن التاريخ الطبيعي للملاريا دون ذكر البعوض![36] وهو يلخص نظريات علم الإنسان التي تمتلك افتراضات أساسية حول رؤية العالم في فئتين: الفلسفة المثالية، والفلسفة المادية. ويبين أن الفلسفة المثالية يمكن أن تصنف إلى الفلسفة الدينية التقليدية التي تفترض أن الظروف المادية تتشكل تحت تأثير قوى غير مادية لتصوغ الأفكار البشرية، والفلسفة المثالية الإنسانية Humanistic التي لا تشترط وجود الدين والميتافيزيقا، وهي تفترض إمكانية تفسير السلوك البشري والتاريخ بالإشارة إلى التفاعل بين الأفكار، والتركيز على البنى العقلية ولا على الكيفية التي

---

[34] ولهيلم دلثاي Welhelm Dilthy (1833–1911) فيلسوف ألماني يعد أهم فيلسوف أوروبي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عرف بنظرياته في العلوم الإنسانية وإسهاماته في عدد من المشكلات المنهجية في دراسة التاريخ والتقدم الإبداعي الذي حققه في مجال الهيرمنوطيقا، إضافة إلى ريادته في المعالجة المنظمة لمفهوم رؤية العالم، حتى قيل إنه جعل من رؤية العالم علماً. وكانت هذه المعالجة محاولة لصياغة نظرية معرفة موضوعية للعلوم الإنسانية والاجتماعية شبيهة بما فعله "كانت" في العلوم الطبيعية.

[35] Kearney, Michael. *Worldview*, Navato, CA: Chandler and Sharp. 1984.

[36] Ibid., p.6.

تتطور فيها هذه البنى نتيجة للظروف البيئية والاجتماعية.[37] أما الفلسفة المادية فإنه بطبيعة الحال "يناضل" من أجلها على سعة الكتاب، مستخدما ترسانة من المفردات الماركسية، فهو يرى أن رؤية العالم يمكن أن تكون أداة قوية في دراسة تراجع الوعي الإنساني الذي يتشكل اجتماعيا، ومن ثم يمكن توظيفها أداة للتحرير بكل ما في الكلمة من معنى، كذلك فإن مفهوم رؤية العالم يرتبط بشدة بمفهوم الأيديولوجيا، وبالتالي يمكن توظيفه في خدمة مصالح الطبقة. وفي مقالة للمؤلف نفسه حول رؤية العالم في موسوعة الأنثروبولوجيا الثقافية يربط رؤية العالم بكل من الأيديولوجيا والهيمنة Hegemony. "فكلاهما رؤية للعالم، فالأيديولوجيا المستندة إلى الطبقة هي نتيجة عمل المفكرين المشغولين بتفسير العالم بطريقة معينة تخدم أغراضا طبقية... والأفكار المهيمنة تميل إلى أن تتجذر في الفهم البدهي العام، كالفولكلور والنزعة العرقية والقيم، ورؤية العالم. والجهود الأيديولوجية الناجحة في النتيجة تصبح مهيمنة." [38]

إن معظم المذاهب السائدة في الدراسات الأنثروبولوجية تتحدث عن الإنسان الطبيعي، أو الإنسان الاقتصادي، أو الإنسان السلوكي. فالإنسان الطبيعي هو مجموعة من الحقائق المادية والوظائف البيولوجية التي تطورت نتيجة التطور والانتخاب الطبيعي، أما خصائصه المميزة له عن الحيوان فهي نتيجة تطور أدوات الإنتاج، أما عقل الإنسان فهو جزء من "مادة" الجسم ولوحة تعكس أثر المؤثرات الطبيعية من حوله. هذه الرؤية المادية لا يمكنها بطبيعة الحال تفسير الجهد المتصل للإنسان طوال تاريخه في البحث عن معنى للكون، أو محور لحركته. والإنسان الاقتصادي هو إنسان "آدم سميث" الذي يفهم سلوكه في الواقع من خلال الدوافع الاقتصادية البحتة، والسعي نحو الربح والمنفعة. أما الإنسان السلوكي- إنسان سكينر، فهو الإنسان الذي تفهم كل أشكال سلوكه على أنها استجابات لمؤثرات محددة.

2. رؤية العالم في علم النفس:

رغم أن فرويد أكد بشدة رفضه اعتبار نظريته في التحليل النفسي رؤية خاصة للعالم، فإن الأوصاف التي أعطاها لهذا الفرع من العلم الذي يربطه بشكل غير مباشر بأسسه الكيميائية والفيزيائية والبيولوجية، ومن ثم النشاط العلمي بصورة عامة، هي تماما الأوصاف التي تُعطى لأي رؤية للعالم، بل إن الإغراق في تأكيد علمية التحليل النفسي وتناقض هذه العلمية مع أي مصدر آخر للمعرفة في الموضوع كالدين وأي افتراضات متيافيزيقية، جعل بعض الباحثين[39] ينسبون إلى فرويد أنه نصب من نظريته "دينا يحكم رؤية الإنسان إلى كل شيء".

---

[37] Ibid., p.11.

[38] Levinson, David. (Editor) *Encyclopedia of Cultural Anthropology*, New York: Henry Holt and Co. 1996. See the Article on Worldview by Michael Kearney.

[39] Ruduysky, P.L. A Psychoanalytic Weltanschauung, *Psychoanalytic Review* 79 (Summer, 1992, P. 289 – 305), see also:
Wood, B. The Religion of Psychoanalysis, *American Journal of Psychoanalysis*, 40, 1980, pp.13-26

إن الإيمان المطلق عند فرويد بالمذهب الطبيعي بطريقة ميتافيزيقية وتبنيه المطلق للوضعية العلمية، لم يكن موقفا محايدا تم اشتقاقه بطريقة موضوعية، فهذا الإيمان هو التزام بأمر تم اختياره على طريقة الإيمان بأي عقيدة دينية، حتى لو زعم فرويد بأنه لم يحاول صياغة رؤية مستقلة للعالم بنظريته حول التحليل النفسي، لكن هذه النظرية مبنية بالتأكيد على رؤيته للعالم، وهي بهذه الصفة تستدعي التزامات أساسية في تعاليمها.

وقد وضح العاملون في مجال العلاج النفسي Psychotherapy منذ كارل يونغ Carl Jung (1875– 1961) أن ممارسة العلاج النفسي مبنية على افتراضات فكرية أساسية، تمثل رؤية للعالم تؤثر في كل من المريض والمعالج، فمثلا يؤكد يونغ أن المعالجة النفسية تهدف إلى الاهتمام بروح المريض، من خلال الاهتمام بالأسئلة والقضايا العميقة حول معنى الحياة البشرية والوجود الكوني؛ فالمريض والمعالج ينطلقان من رؤية واسعة للحياة وللحقيقة، وهي أمور لا يمكن تجنبها في المعالجة النفسية، فالعلاج يتعلق بالشخص في صورته المتكاملة بما في ذلك فلسفته في الحياة، تماما كما أن العلاج الجسمي لا بد أن يأخذ في الاعتبار وظائف الجسد كلها، فليس ثمة أدنى شك في أن العامل النفسي يشكل -على الأقل- بعدا واحدا في الكون النفسي، وهو أكثر أهمية من البعد الجسدي الظواهر الفعلية والأخلاقية والدينية والتقاليد الاجتماعية التي لا يمكن بيان دورها بطريقة علمية، فهذه -بلا شك أيضا- تشكل القطب الآخر للكون النفسي، وهذا القطب أكثر أهمية من أثره في الأنفس من المؤثرات الفسيولوجية، ولذلك فإن فلسفة الحياة أو رؤية العالم جزء مهم من العملية العلاجية.[40]

ويرى عبد الوهاب المسيري أن نشأة علم النفس -وبخاصة نظريات التحليل النفسي- ارتبطت ارتباطا وثيقا بالتطور الذي طرأ على الحضارة الغربية، وتحول ظاهرة الإنسان إلى مجرد ظاهرة طبيعية تخلو من الروح، وإن كانت لها نفس، ويكفي أن تُدرس في إطار الغرائز والسلوك الظاهري.[41]

3. رؤية العالم في علم الاجتماع:

ليس من الصعب تحديد موقع رؤية العالم في نظريات رواد علم الاجتماع في العالم الغربي، مانهايم مثلا سعى إلى تطوير طريقة علمية يحدد بها بطريقة موضوعية رؤى العالم المختلفة، على صورة "طبقات عقلية ما قبل نظرية" في السياقات الثقافية والتاريخية المختلفة. ومع أن هذه الرؤى المنهجية مثيرة للاهتمام، لكن الأهم منها هو تعريف مانهايم لرؤية العالم، بوصفها ظاهرة كامنة يمكن إدراكها من معانيها الظاهرة، وبوصفها بنية تتموضع في البعد الضمني. وهذه الرؤية أخذها كثير من رجال الدين المسيحي، ولكن ما المبرر المنطقي لتحديد رؤية العالم بهذا البعد الضمني الكامن في الإدراك البشري؟ هل يعتمد رجال الدين على أساس إنجيلي

---

[40] Naugle, David K. *WorldView: The History of A Concept*, Grand Rapids, MI: William Eerdmans, 2002, p. 218-222.

[41] عبد الله، احمد محمد. "قراءة في المداخل النفسية للموسوعة". في: **في عالم عبد الوهاب المسيري: حوار نقدي حضاري**، تحرير أحمد عبد الحليم عطية. القاهرة: دار الشروق، 2004، ج1، ص 589- 595.

في فهمهم هذا؟ هل يمكن فهم رؤية العالم في السياق الديني المسيحي بطريقة مختلفة؟ فهل هي مجرد مصطلح له جاذبية شعبية. أم مجرد طريقة للإشارة إلى جوهر التعاليم والمعتقدات المسيحية؟

ومن جهة أخرى طور "برجر ولوكمان" الأفكار الأساسية لعلم اجتماع المعرفة، وبينا أن الجزء الأكبر من المعرفة البشرية هو بالفعل نتاج اجتماعي، مما يطرح سؤالا عن فهمنا للحكمة الإلهية في ضوء هذه الحقيقة، فربما أراد الله للناس أن يكتسبوا رؤيتهم للأشياء من خلال تأثير شركائهم في الحياة اليومية. وإن الانغماس الثقافي وضغط الأقران مصدر لكثير مما يعتقده الناس، بما في ذلك استقبال الفهم الديني المسيحي للحياة، فحتى لو كان مصدرها الأساسي هو الوحي الإلهي، إلا أنها تصل إلى الناس بطريقة اجتماعية. ولما كانت المجموعات الاجتماعية ذات أهمية معرفية، فإن المؤسسة الدينية –الكنيسة مثلا– يجب ألا تنسى قوة المحيط الاجتماعي في تشكيل الوعي الديني.

وقد كان لكل من كارل ماركس وفريدريك إنجلز دور كبير في صياغة رؤية للعالم على أساس علمي بالاعتماد على المادية الجدلية، حيث أوضحا دور الأيديولوجية في تحقيق مصالح الطبقة والصراع الثقافي. وقد اهتم فريدريك إنجلز بموضوع رؤية العالم اهتماما مباشرا، ووسع تطبيقات المادية الجدلية لتشمل كل مجالات الفكر الشيوعي. فهو يرى أن الافتراضات الفلسفية تتعلق بصلة العقل الإنساني بالمادة، فالعقل هو وظيفة المادة بالمعنى الوجودي والمعرفي؛ أي أن الطبيعة هي صاحبة الدين، وليس ثمة فلسفة علمية إلا المادية الجدلية، فهذه الفلسفة هي التي تملك مقولات علمية حول الموضوعية والعقلانية والكونية والتعيين. وقد انتشرت عقيدة المادية الجدلية في العالم الشيوعي بوصفها الطريقة المعيارية لإدراك الحقيقة، ولذلك جاء في الموسوعة السوفييتية الكبرى ما يلي:

بالمقارنة مع رؤية العالم البورجوازية، فإن رؤية العالم الشيوعية إلى تلخيص التقدم في العلم والممارسة الاجتماعية هي رؤية علمية منتظمة عالمية وإنسانية، وتتطابق جذورها في الحركة الثورية للعمال. إن الفلسفة الماركسية اللينينية وهي المادية الجدلية والتاريخية، تشكل مركز رؤية العالم الشيوعية، وهذه الرؤية هي أداة فورية للتحول الثوري في العالم، وهي واحدة من القوى الحاسمة في تنظيم الناس في الصراع من أجل الاشتراكية والشيوعية. ففي العالم المعاصر ثمة رؤيتان للعالم في صراع عميق هما الشيوعية والبورجوازية، إن أثر الماركسية اللينينية التي تنمو وتنتشر في أثناء الصراع تحقق انتصاراتها بقوة الحقيقة ومصداقية افتراضاتها العلمية الدائمة.

وقد أصبحت رؤية العالم الماركسية اللينينية هي الأيديولوجية المسيطرة في المجتمع الاشتراكي، وهي تزود السياق الذي يعطي معنى الحياة، والإطار الذي يتم فيه تشكيل وتفسير المجموع الكلي للأحداث الإنسانية.

"ويجتهد الحزب الشيوعي لجعل كل إنسان يرى معنى حياته من خلال الصراع من أجل التحقيق العملي للأفكار الشيوعية، وليفهم بوضوح مسار التطور في أحداث العالم ومصيره، وليحلل الأحداث السياسية الاجتماعية بطريقة صحيحة، وليبني بصورة واعية المجتمع الجديد. وأحد المهمات الأساسية للحزب

هي تربية الناس في رؤية العالم الشيوعية لتكوين اتجاهاتهم نحو العمل حسب الأخلاقيات الشيوعية، ذات الأبعاد الحقيقية للإنسانية والعالمية".

"إن مفهوم رؤية العالم يتصل بمفهوم الأيديولوجيا ولكنه لا يتطابق معه، فرؤية العالم مفهوم أعم من الأيديولوجيا، فالأيديولوجيا تنحصر في أبعاد محددة من رؤية العالم التي تتوجه نحو الظاهرة الاجتماعية وعلاقات الطبقة، بينما تتعلق رؤية العالم في المقابل بالحقيقة الموضوعية"، وقد وضح ماركس كيف تفعل الأيديولوجيا بوصفها فرعا من رؤية العالم، منذ توظيفها كسلاح فكري في خدمة مصالح الطبقات، سواء كانت هذه المصالح ثورية أو رجعية، تقدمية أو محافظة، عالمية أو وطنية.

4. رؤية العالم في الإعلام:

كما احتلت رؤية العالم الهيومانية "الإنسانية" مواقع التعليم والجامعات مكان الدين في الولايات المتحدة، كذلك تقدمت هذه الرؤية لتكون الروح التي تسري في ثقافة الإعلاميين وتوجهاتهم، ولذلك ليس غريبا أن تعتبر مجلة Humanist رجل العام 1990 "تد ترنر" وهو صاحب الشركة العملاقة التي تمتلك CNN و TBN و TNT. إن ترنر لا يجعل الدين صالحا لحمل رؤية معتبرة للعالم بل يعتبر: "المسيحية دين الفاشلين، وما كان على المسيح أن يموت على الصليب، فأنا لا أريد أحدا أن يموت من أجلي، وقد كان لدي بعض كؤوس الخمر وعدد من النساء والصديقات، وإذا كان هذا ما سيقودني إلى جهنم فلا مانع من ذلك" وهو يرى ضرورة الاستغناء عن الوصايا العشر ويستبدل بها وصايا أخرى منها: أن لا يكون له أكثر من طفلين أو ما تقترحه علي دولتي، ورفض استخدام العنف المسلح ودعم وساطة الأمم المتحدة في حل الخلافات الدولية، وإعطاء الحب للكوكب الأرضي ولمن يعيش عليه... وغير ذلك.[42]

كذلك ليس غريبا أن يكون كل من: سكنر وماسلو وكارل روجرز وإيريك فروم من علماء النفس رجل العام في مجلة Humanist. وكذلك كتاب الخيال العلمي ذوي النزعة الإنسانية الذين عرفوا في مسلسلات تلفزيونية مشهورة مثل كارل ساجان وإسحق أزيموف كان كل منهما رجل العام في المجلة المذكورة.

[42] Cal Thomas, Turner's Takeover Tender, *The Washington Times*, Nov. 6, 1989, P. F2. See David Nobel on the internet

خامسا: التحيز في "رؤية العالم" للعلوم الاجتماعية

في الأيام الذهبية للتنوير كان التحيز ضد التحيز سائدا، فالذين دعموا مشروع التنوير كانوا قلقين من التلوث المعرفي الناتج من جراثيم التحيزات الشخصية والثقافية، ولذلك استخدموا مضادات حيوية من الموضوعية والعقلانية العلمية مع جميع الأنشطة النظرية المهمة؛ لإنتاج صورة نقية من المعرفة تتميز بالدقة الرياضية. وبالرغم من الجهود الهائلة التي بذلها أولئك الذين نزعوا الصفة المعرفية الإنسانية عن مشروع التنوير، فإن أساليب المعرفة المستقلة عن القيم قد صادفت أياما عصيبة، فقد أمكن ملاحظة أن التحيز ضد التحيز أصبح تحيزا، وتم الكشف عن الطبيعة المتناقضة للمشروع، وفي هذه الأيام "عصر ما بعد الحداثة" يعتقد الكثير من المفكرين بأن من المستحيل تقريبا، وليس صحيحا كذلك، محاولة الحجر على الفكر أو تخليص الأنشطة الفكرية من أثر العوامل الشخصية والثقافية، فالنظريات تتأثر بالعديد من الأعراف والقيم والاتجاهات الخاصة بمن يضع هذه النظريات، وإعادة أنسنة عملية الفكر تعني أن من غير الممكن لأي شخص أن يتناول أي موضوع بعيدا عن الحضور الفاعل لرؤية العالم التي يملكها المفكر.

وجدير بالذكر أن مؤرخ الفلسفة W.T.Jones قد كلف بمهمة تلخيص أعمال مؤتمر الأنثروبولوجيا المنعقد عام 1968 في أوروبا حول طبيعة رؤى العالم ودورها في الثقافة، وأحد الأهداف الأساسية للاجتماع هو مناقشة وتعريف مصطلح "رؤية العالم" نفسه، وقد تعددت وجهات نظر المشاركين، ولكن حججهم كانت قليلة، ومداولاتهم كانت في معظمها فاشلة. والسبب الأساسي في عدم التقدم حول هذه الجبهة أن المشاركين عندما كانوا يناقشون "رؤية العالم" كانوا في حقيقة الأمر يعبرون ضمنا عما يحملون من رؤى العالم.[43]

ومثال آخر على صعوبة تحديد مدلول رؤية العالم وارتباط هذا المدلول بالأطر الأيديولوجية للأشخاص، ما يظهر في كتاب James Sire بعنوان : الكون المجاور لنا: سجل برؤى العالم الأساسية، فالكتاب منظم حول الإجابات عن أسئلة فلسفية تقدمها ثماني رؤى مختلفة للعالم. والأسئلة تدور حول سبع قضايا هي: الوجود أو الحقيقة النهائية، والكون، والإنسان، والموت، والمعرفة، والأخلاق، والتاريخ.[44]

إن أسئلة المؤلف عن هذه القضايا وبهذا الترتيب تعكس رؤية محددة للعالم، والذين وجهوا نقدا للكتاب أوضحوا أن طريقة المؤلف هذه تعكس الرؤية الدينية التوحيدية التي تعد ما قبل حداثية premodernism، حيث بدأ بقضية الوجود التي جعلت القضايا الأخرى نابعة منها وتابعة لها، ولو كان المؤلف حداثيا Modernist فإنه سيبدأ في الغالب بنظرية المعرفة Epistemology، ولو كان من أتباع مدرسة ما بعد الحداثة Postmodernism فإنه يبدأ على الأغلب بقضية اللغة والمعنى.

---

[43] Naugle, David, *Worldview: The History of A Concept*…..p. 254.

[44] Sire, James. *The Universe Next Door: A Basic World View Catalog*. 4rd Ed. Downers Grover, Ill. InterVassity, 2004, P. 17 – 18.

إن المؤلف المذكور ليس فريدا في منهجه، لأن الاستعراض التاريخي يبين أن مثالية هيجل، وتاريخانية دلثاي، وإلحادية نيتشه، ولغوية ويتغنشتاين وظاهراتية هيسرل، وأمثالها من المذاهب كلها أثرت في فرضيات أصحابها عن رؤية العالم بصورة عميقة. ولهذا فليس غريبا أن يعالج الباحث المؤمن أثر رؤيته الدينية على طبيعة المفهوم الذي يتبناه حول "رؤية العالم".

وقد كشفت أعمال ندوة: "إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد"[45] التي نشرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أن ظاهرة التحيز في العلوم والمعارف المتداولة هي تعبير عن تبني رؤية محددة، ومن ثم رفض الرؤى الأخرى، وأن هذه الظاهرة حتمية لأنها ترتبط ببنية العقل الإنساني واللغة الإنسانية، وإنسانية الإنسان. ومع ذلك فهذه الظاهرة ليست نهائية بمعنى أنها ليست قدرا لا راد له؛ فثمة إمكانات واسعة لتجاوز التحيز، مرتبطة بحقائق الفطرة الإنسانية، وبمبدأ التعارف والتدافع، وبالمشترك القيمي الإنساني.

وقد تضمنت بحوث الندوة أمثلة عن التحيز في العلوم السائدة في العالم اليوم في المجالات الطبيعية والاجتماعية والإنسانية، وتناولت هذه البحوث عشرات القضايا والموضوعات: من تصنيف العلوم وقضايا علم المكتبات، إلى التصميم و الفن والمعمار والهندسة، إلى التنمية والسياسة والاقتصاد والتكنولوجيا، إلى الذكاء الإنساني واللغة والأدب، إلى الفقه وأصوله... وغيرها. وقد أثار نشر هذه الأعمال اهتماما كبيرا بالموضوع، وردود فعل مختلفة، وتوالت الدراسات حول موضوع التحيز، حتى إن بعضها دعا إلى إنشاء علم خاص يسمى علم التحيز –لمعالجة تحيز العلم!

وقد تناولت إحدى هذه الدراسات[46] تحليل المقولات الأساسية للبحث الموسع الذي قدمه المسيري بعنوان فقه التحيز، وحول هذه المقولات إلى خرائط راصدة أوضحت أن النماذج المعرفية التي تدور حولها العلوم المختلفة تقوم على رؤية كلية كامنة. وبين أهمية التمييز بين التحيز المشتق الذي يخص فرعا بعينه من العلوم الاجتماعية والإنسانية وأصول التحيزات المشتقة الكامنة في نسق من الرؤية العامة. وبناء على ذلك فإن التحيز الأصلي هو الأكثر أهمية؛ لأنه يتكون من مجموعة من المفاهيم الحضارية الأساسية، التي تشمل عالم الأفكار وعالم الأشياء وعالم الأشخاص، وتستبطن رؤية كلية للعالم ونمطا محددا للحياة يقوم على مجموعة من الافتراضات المسبقة المتحيزة سلفا.

إن بعض المفاهيم مثل: الدين والحضارة والثقافة والتجديد والتراث والمنهج والقيم... وغيرها، رغم أنها مفاهيم كبرى، فإنها تعرض في العلوم الاجتماعية والإنسانية السائدة في صورة مفاهيم جزئية تستبطن النمط الحضاري الغربي بهدف تعميمه، وإعطائه موقع الهيمنة التلقائية على سائر المفاهيم المشتقة في العلوم الاجتماعية والإنسانية. ذلك أن الرؤية الكلية لهذه المفاهيم الحضارية الأساسية تُنتج مفاهيم مشتقة على شاكلتها تصطبغ بتلك الرؤية وتؤثر بصورة مباشرة في نتائج التحليل والتعميم وسائر العمليات المنهجية.

---

[45] المسيري، عبد الوهاب (محرر). **إشكالية التحيّز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد**. ط2، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1996.

[46] إسماعيل، سيف الدين عبد الفتاح. مقدمات أساسية حول فقه التحيز من منظور معرفي، في كتاب: **في عالم عبد الوهاب المسيري: حوار نقدي حضاري**. تحرير أحمد عبد الحليم عطية، القاهرة: دار الشروق، 2004، مج2، ص61-89.

سادسا: إعادة تنظيم العلوم الاجتماعية بحاجة إلى رؤية جديدة للعالم

ضمن برنامج البرتغال عام 2000 وبمبادرة من مؤسسة Calouste Gulbenkian البرتغالية، تم تشكيل مجموعة عمل دولية من المفكرين والعلماء المتخصصين في العلوم الاجتماعية وممثلين عن العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، للنظر في إمكانية إعادة تشكيل العلوم الاجتماعية على عتبة القرن الحادي والعشرين. وقد عقدت هذه المجموعة سلسلة من الندوات في مواقع مختلفة من العالم لاستدراج تحليلات ذات طبيعة عالمية حول المشكلات التي تحول دون بناء مستقبل أفضل للمجموعات البشرية والحلول الممكنة لهذه المجموعات.

وقد قدمت المجموعة البحثية تقريرا غنيا جادا[47] لاحظ فيه الباحثون أن التقدم الذي تم في البحث العلمي، وتأكيد أهمية التوجهات الكونية التي شجعت حوار الثقافات، والنمو المذهل في التعليم الجامعي، كانت كلها عوامل أثرت بقوة في ممارسات العلماء الاجتماعيين، لكنها لم تتح الفرصة لإعادة النظر في بنية هذه ا لعلوم وتنظيم فئاتها وتصنيفاتها، مما ولد مبررا لطرح السؤال الرئيس الذي حاولت المجموعة البحثية الإجابة عنه، وهو يتعلق بمدى كون التصنيفات المعاصرة للعلوم الاجتماعية تمثل أزمة رئيسة لهذه العلوم.

وقد بينت الدراسة أن ثمة ضغوطا قوية تمارس على العلماء الاجتماعيين لإعادة تنظيم العلوم الاجتماعية، لكن هذه الضغوط لا تعمل بانسجام دائما، وتختلف اتجاهاتها باختلاف التوجهات النظرية لمجموعات العلماء الاجتماعيين، ولموقع هذه المجموعات في أنشطة الخدمة العامة، وطبيعة الضغوط السياسية، وسياسات التعليم العالي. كما أشارت الدراسة إلى أن الحاجة إلى التغيير في البنية التنظيمية للعلوم الاجتماعية، أقل أهمية من الحاجة إلى مضاعفة تنظيم النشاط الفكري للعلماء الاجتماعيين، مع تجاوز الحدود الفاصلة بين علومهم وتخصصاتهم العلمية. فالدراسة التاريخية ليست شأنا خاصا بمن عرفوا في تخصص التاريخ، وكذلك الأمر بالنسبة للدراسة الاجتماعية أو الاقتصادية، فليس ثمة مناطق معرفية معزولة عن بعضها، ولا مبرر لاحتكار الحكمة في مجال فهم مسألة من المسائل الاجتماعية وقصرها على أشخاص يحملون شهادات جامعية معينة.[48] وأشارت الدراسة إلى الفرص المتاحة للبلدان الأفريقية وبلدان شرق آسيا وغيرها من الدول النامية، لتجريب صور جديدة من تنظيم العلوم الاجتماعية، وهذه الصور الجديدة ربما تكشف عن إبداعات تخدم الجميع، وقد تكون محاولات التجريب هذه في اتجاهات متعددة بتأثير خصوصيات بلدان العالم.

وألمح التقرير إلى أن ثمة من ينظر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لتتولى جامعاتها تقديم حلول خيالية إبداعية للمشكلات التنظيمية في الواقع المعاصر للعلوم الاجتماعية، كما فعلت في نهاية القرن التاسع عشر

---

[47] Wallerstein, Immanuel; et al. (Editors) *Open The Social Sciences: Report of the Bulbernkian Commission on the Restructuring of the Social Sciences*. Stanford, CA: Stanford University Press, 1996.

[48] Ibid., p. 98.

وبعد الحرب العالمية الأولى وبعد الحرب العالمية الثانية. لكن التقرير يؤكد أن هؤلاء الذين ينتظرون من الجامعات الأمريكية أن تأتي بالحلول الإبداعية ليتبنوها في بلادهم إنما يخاطرون بتبني حلول لمشكلات ليست مشكلاتهم، ويتناسون أن مشكلاتهم الحقيقية ليست هي المشكلات التي قادت إلى الحلول التي قدمتها الجامعات الأمريكية.[49]

وقد اقترح التقرير عددا من المسارب للنظر في تطوير الممارسات التي يقوم بها أساتذة الجامعات المتخصصين في العلوم الاجتماعية، التي ربما تقود إلى نتائج إبداعية تغير من صورة العلوم الاجتماعية في العقود القادمة. والحلول المقترحة كلها تنطلق من إعمال الرؤية الكلية إلى الواقع ومشكلاته، وإلى المعرفة وتصنيفاتها التقليدية. ومن هذه المسارب ما يتعلق بإنشاء مؤسسات جديدة داخل الجامعات تقوم برامجها على اشتراك أعضاء هيئة التدريس الجامعي في العمل ضمن فريق حول محور محدد لمدة عام، أو إنشاء برامج بحثية متكاملة ضمن البنية الجامعية لتطوير معرفة تتجاوز التقسيمات التقليدية للأقسام والكليات؛ وتعيين أعضاء هيئة تدريس للعمل في أكثر من قسم، وتطوير برامج بحثية يشارك فيها عدد من الطلبة من أقسام مختلفة.

إن النظم المعرفية disciplines التي نعرفها اليوم ضمن العلوم الاجتماعية قد تمايزت خلال قرن من الزمن (1850-1945) في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، وقد جرى تبني هذه النظم المعرفية على امتداد العالم. ومنذ عام 1945 بدأ يظهر جدل متعدد الوجوه ضمن هذه الأنظمة حول فعالية تصنيفات المعرفة، ومدى الحاجة إلى تنظيمها في تصنيفات جديدة. ولا شك أن حسم الجدل حول المضمون الفكري يتطلب النظر في البنية التنظيمية. ولو دققنا النظر في كل نظام معرفي على حدة سنجد أن كل مجال منها يتطلب تدريب جيل المستقبل من المتخصصين فيه، ومن ثم تحديد السيرة العملية لهؤلاء المتخصصين، فمثلا تتطلب مهام التدريس والبحث في الجامعات في تخصص معين الحصول على شهادة الدكتوراه أو ما يعادلها في ذلك التخصص، وتتطلب طبيعة المهنة والترقي فيها نشر بحوث التخصص في دوريات التخصص، وحضور الاجتماعات المهنية الوطنية والدولية التي ينظمها المتخصصون. وقد عملت الحدود التنظيمية لكل مجال معرفي على حماية أعضاء الجماعة العلمية المتخصصة بطريقة تحذرهم من تجاوز حدود تخصصهم.[50]

وينعكس الاهتمام بمفهوم الرؤية الكلية على الجدل حول حدود المجالات المعرفية في العلوم الاجتماعية بغرض تجاوز هذه الحدود، وتجاوز الحدود بينها وبين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، فالتمييز الحاد بين ما يسمى ب"الثقافتين" أخذ يتعرض لضغوط شديدة بعد الحرب العالمية الثانية، نتيجة تطور موضوعات جديدة للدراسة تتداخل فيها المجالات المعرفية كما تتداخل فيها المناهج البحثية، ونتيجة رد الاعتبار لقضايا القيم المرتبطة بالإنجازات التكنولوجية، والتغيرات البيئية، ونتيجة تطور رؤى جديدة في فلسفة العلوم هزت شرعية المناهج الوضعية.

---

[49] Ibid., p. 100.

[50] Ibid., p. 71

والخلاصة أن كل التطورات المتعلقة بالنظر إلى حدود المجالات المعرفية تتجه إلى تقارب هذه العلوم والتقليل من شأن الحدود بينها، كذلك تبرز هذه التطورات قيمة العلوم الاجتماعية باعتبارها المحور الذي سوف يربط بين ما يعرف الإنسانيات من جهة والعلوم الطبيعية من جهة أخرى.[51]

وعلى كل حال فإن كل العلوم تحتاج إلى رؤية كلية شمولية. ففي مجال العلوم الطبيعية لاحظ كثير من العلماء المتخصصين مشكلة التجزئة والتبعثر في حقول المعرفة، إلى تخصصات دقيقة حصرت معرفة العالم المتخصص في فرع دقيق، وحرمته من امتلاك رؤية شاملة موحدة للكون، وجعلت من الصعوبة التفكير في مثل هذه الرؤية الموحدة.[52]

---

51 Ibid., p.60-69

52 Heisenberg, Werner (1979) *Philosophical Problems of Quantum Physics*. Woodbridge, Conn: Ox Bow Press.

سابعا: رؤية العالم بوصفها وحدة تحليل

يختلف كل فرد من بني البشر عن الآخر في عدد كبير من الأشياء؛ إذ تختلف الأشكال والألوان، وتختلف الأفكار والمشاعر، وتختلف المطامح والأهواء، وتختلف الطبائع والأمزجة، ومع ذلك ثمة أمور تجمع مجموعات من هؤلاء البشر المختلفين في الكثير، فتنعقد بينهم بعض أوجه التشابه، وتنشأ بين أفراد المجموعة المتشابهة من الود والحب، ما ينشئ سلاما نسبيا داخل كل مجتمع. ثم تتحيز خصائص الحب والود والتعاون بين أفراد المجتمع وتتمحور حول بؤرة معينة، في حين تتقلص وتنسحب هذه الخصائص نحو الداخل المجتمعي، لتنشِئ في المقابل حقدا وحسدا وكراهية وعداوة للمجتمعات الأخرى. وتتعاظم أسباب الاختلاف والخلاف فتنشأ الحروب والصراعات المسلحة. من هنا تأتي أهمية فهم الأمور التي يتشابه بها الناس والأمور التي يختلفون فيها؛ أو معنى آخر فهم الأسباب التي تجعلنا متشابهين والأسباب التي تجعلنا مختلفين.

إن تحليل رؤى العالم يخدم في تحقيق هذا الفهم عندما نستحضر بالضرورة الصورة الكلية ونجعلها في بؤرة الاهتمام والتفكير. وهذا النوع من التحليل يضيء قلب المسألة، فنرى ونفهم المشكلات التي تعاني منها مجتمعاتنا والحلول الممكنة لهذه المشكلات. ويمكن لرؤية العالم أن تكون أداة للتحليل في عدد من المستويات، منها: تحليل الذات، وتحليل الآخرين، والتحليل الثقافي، والتحليل الأكاديمي.

وتحليل الذات أمر مهم مفيد جدا، وهو سهل عند بعض الأفراد صعب جدا عند آخرين، ويتطلب هذا التحليل حوارا مع الذات وسؤالها عن الأشياء التي تعتقد أنها تمثل الحقيقة، والمعاني الكامنة خلف ممارساتنا في الحياة وعلاقتها برؤيتنا الحقيقية للعالم، وتحديد الأسباب الكامنة خلف التغيرات التي تطرأ على حياتنا في المجال الفكري والانفعالي. وفي المقابل يتطلب استخدام رؤية العالم بوصفها وحدة تحليل للآخرين، التأمل في الطريقة التي يفكر الفرد الآخر، وأسباب سلوكه على الطريقة التي يسلكها في الحياة والأطر العامة التي تحدد أفكاره ومعتقداته. وفي الحالتين فإن تحليل رؤية ا لعالم لدى كل من الذات والآخر تتعلق بالبعد الفردي الشخصي. وتظهر أهمية التمييز بين هذين المستويين على وجه التحديد عند النظر إلى الطرق التي يعرض فيها الأستاذ الجامعي مادة العلوم الاجتماعية، فقد لاحظ عالم الاجتماع أنتونيو تشياريلي في بداية عمله في الجامعة أنه مجرد مريد لأساتذته الذين علموه: "كنت أؤدي وظيفتي في إطار علماني ليس لشيء إلا لأنه قد جرى تكويني وتدريبي في هذا الإطار، فهذا في النهاية هو تماما ما تعلمته من أساتذتي، وهم المثل الذي يحتذى، لقد كنت مريدا..."[53]

أما التحليل الثقافي فإنه يتعلق بالخصائص العامة التي تميز عددا كبيرا من الأفراد في بعدهم القومي أو الديني العام عبر الزمان والمكان. وقد استدرك جيمس سير في حديثه عن رؤية العالم بوصفها وحدة تحليل ثقافي[54] مبينا أننا نرجع في حقيقة الأمر إلى النظرة الشخصية الضيقة التي يمتلكها هذا الفرد لرؤية العالم،

---

53 Chiareli, Antonio A. Christian Worldview and the Social Science, … p. 241

54 Sire, James. *Naming the Elephant: Worldview As A Concept*. Downers Grover, Ill. InterVarsity Press, 2004, p. 153.

مقارنة بالنظرة الشاملة التي يمتلكها الآخرون تجاه الرؤى العالمية الثماني (التي حللها في كتابه) من حيث خصوصياتها الزمانية والمكانية، وأيضا من حيث كونها رؤية عامة واسعة اختصت بها مجموعة من الناس دون غيرها. ثم أراد الكاتب أن يبين المقصد الأساسي الذي بنى عليه كتابه الآخر: "الكون المجاور لنا" وهو عبارة عن بسط لثماني رؤى عالمية تناول فيها الوصف الدقيق لثقافة المجموعات الكبيرة من الناس مثل: أهل الأديان المختلفة أو المدارس الثقافية والفلسفية بوصفها وحدة للتحليل الثقافي، بداية من مذهب الإيمان بوجود الله من منظور مسيحي، ثم مذهب الإيمان بالله مع عدم الاعتراف برسالات الوحي، والمذهب الطبيعي، والعدمية، والوجودية، والحلول والاتحاد، والعصر الجديد، وعصر ما بعد الحداثة. ويرى الكاتب أيضا أن كل هذه الرؤى كتبت من وجهة نظر فردية، وحتى الأسلوب الذي وصف به رؤية العالم من خلال المنظور المسيحي الذي يتبناه، هو عمل فردي أيضا. وتمنى الكاتب أن يكون هذا الوصف مكتملا؛ لأنه لا يوجد في الحقيقة ما يسمى بالعمل الكامل.

أما رؤية العالم بوصفها وحدة تحليل في المجالات الأكاديمية، فإنها تعيننا على تفسير التنافس بين النظريات والمبادئ العامة والخاصة ببعض المجالات المعرفية، نتيجة توجهات المتخصصين والعلماء الذين يصوغون هذه النظريات والمبادئ. ولو صرفنا النظر عن الجذور التاريخية لكثير من هذه النظريات والأطر الفلسفية والأيديولوجية التي بنيت عليها لنركز اهتمامنا على واقع تدريس الحقول العلمية في المستوى الجامعي، مثل: علم الأدب، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، فإننا سوف نجد أن الأستاذ الجامعي في الممارسة العملية يكون أمام عدد من الخيارات التي يتخذ منها موقفه عن وعي وسبق تخطيط. فمثلا قد يختار كتابا أو عددا من الكتب التي تعبر عن رؤية محددة للعالم يتبناها ذلك الأستاذ ويود أن يعرض طلابه لها، وقد لا يصرح الأستاذ بذلك بطريقة مباشرة، ولكن بعض الطلبة يكتشفون ذلك ليس من اختيارات الكتب والمؤلفين وحسب، بل ومن طبيعة العرض والمناقشات التي يقوم بها، وحرارة الدفاع عن مواقف المؤلفين وتوجهاتهم.[55]

ثامنا: العلوم الاجتماعية في رؤية العالم الإسلامية

تزداد الحاجة إلى بلورة رؤية العالم الإسلامية يوما بعد يوم، فقد أصبحت هذه الرؤية اليوم موضوع كثير من الجدل بين فئات المسلمين؛ حيث تدعي بعض الفئات أنها تملك الشرعية أكثر من غيرها في تمثيل الإسلام والتعبير عنه. كذلك يتساءل غير المسلمين في حيرة أحيانا عن الرؤية الإسلامية للعالم التي تتنازعها الفوضى الفكرية التي تعكسها سياسات الدول وأجهزة الإعلام في العالم الإسلامي، وعن علاقة الإسلام ورؤيته للعالم بصور التخلف التي لا تزال تلون هذا العالم.

كتب محرر إحدى دور النشر الأمريكية الدكتور جيمس سير James W. Sire كتابا بعنوان الكون المجاور لنا دليل أساسي لرؤى الحياة، ونشره عام 1976، ثم أعاد طبعه مرتين مع التنقيح والزيادة مرة عام 1988 ومرة عام 1997، وبيع منه في هذه الطبعات الثلاث أكثر من ربع مليون نسخة، وتحدث فيه عن

[55] وبعض الأساتذة يسلكون منهجاً مختلفاً؛ إذ يختارون كتباً تتبنّى وجهات نظر مختلفة، وتعبر عن رؤى مختلفة للعالم، ويكون هدف الأستاذ حينها –أو أحد أهدافه على الأقل– تدريب الطلبة على تمييز رؤى العالم المختلفة والمبادئ التي تفترضها كل منها.

الصور المختلفة السائدة من رؤية الحياة في الغرب: المسيحية، والطبيعية، والعدمية، ووحدة الوجود الشرقية، فلسفة العصر الجديد، العدمية، وما بعد الحداثة. وفي الطبعة الرابعة التي صدرت عام 2004 تحدث في مقدمة الكتاب عن التحديثات التي أدخلها على الكتاب، وأشار إلى أمر كان يجب أن يضيفه إلى هذه الطبعة لكنه لم يفعل؛ لأنه لا يشعر أن بمقدوره القيام بهذه المهمة بالطريقة التي يجب أن تتم بها، وهو الحديث عن الرؤية الإسلامية للعالم، التي أصبح من الضروري عرضها بعد أحداث 11 أيلول 2001 في أمريكا، لأنها أصبحت تمس مسا وثيقا حياة الناس حول العالم.

وقبل حوالي ثلاثين سنة كتب المرحوم إسماعيل الفاروقي يقول: إن الرؤية الإسلامية للعلوم يجب أن تنظم تحت لواء مبدأ التوحيد؛ بمعنى أن جميع موضوعات المعرفة التي تتصل بالفرد أو الجماعة، بالإنسان أو الطبيعة، بالدين أو العلم، تعد بمنزلة معرفة لإرادة الله سبحانه وتدبيره وحكمته، وأن جهد الناس يجب أن يتوجه للالتزام بالنمط الإلهي الذي أوحى به لتتحقق سعادة البشر.

ومع ذلك فإن مبدأ التوحيد يسمح بتوظيف مبدأ الزوجية أو الثنائية، الذي تميز بصورة حاسمة بين الخالق والمخلوق، وبين الروح والمادة، وبين الإنسان والأشياء. ومن ثم فأي تصنيف للعلوم يجب أن يميز بين العلوم الطبيعية من جهة وعلوم الإنسان وعلاقاته البشرية من جهة أخرى، وأن هذا النوع الثاني من العلوم ينطلق من خلافة الإنسان في الأرض والمقتضيات الإنسانية والاجتماعية المنبثقة عنها بالضرورة. ونظرا لأن هذه الرؤية الكلية الخاصة بالأمة الإسلامية هي التي تحكم هذه العلوم، فإنها يجب أن تسمى العلوم الخاصة بالأمة، وأنه لا معنى لتقسيمها إلى العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، وأن صفة العلوم الاجتماعية يجب أن تجمعها جميعا.[56]

وإذا كانت الرؤية الكونية تتعلق بتصور الإنسان عن الخالق والكون والإنسان فإن هذا التصور فيما يتعلق بالإنسان يدور حول ما يسميه عماد الدين خليل "مراكز الثقل" التي تميز التصور الإسلامي للإنسان عن سائر المذاهب والتصورات، وتنبثق عنها ملامح أو أسس نظرية للمعرفة تتميز هي الأخرى عن سائر النظريات الوضعية. ومراكز الثقل هذه أو "عناصر الرؤية الكونية" هي: تَمَيُّزُ الإنسانِ بالفكر والعقل، وتميزُه بالروح والوجدان، وعونُ الله له بالنبوات، والاستخلافُ العمراني للإنسان في العالم، وتسخيرُ العالم للإنسان.[57]

والرؤية الإسلامية بصفة عامة وفي العلوم الاجتماعية على وجه الخصوص، تحدد طبيعة المعرفة البشرية. ويرى ألب أرسلان[58] أن الرؤية الإسلامية تفترض أن الإنسان يمتلك قدرا من المعرفة السابقة، أي أن العقل الإنساني في المنظور الإسلامي قد خلق مزودا بالقدرة على اكتساب المعرفة عن العالم، وأن العالم قد خلق

---

[56] الفاروقي، إسماعيل. صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية، ورقة قدمت إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي في مكة المكرمة في أبريل/نسان عام 1977. ثم نشرت في **مجلة المسلم المعاصر**، العدد 20، أكتوبر-ديسمبر 1979، ص 25-41.

[57] خليل، عماد الدين. ابن خلدون. في كتاب: **من أعلام التربية العربية الإسلامية**، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج. 1989، مج4، ص124.

[58] Acikgenc, Alparslan. *Islamic Science: Towards a Definition*, Kuala Lumpur: International Institute of Islamic Thought and Civilization (IIITC), 1996, p.25-27.

بطريقة تمكن عقل الإنسان من فهمه، وهكذا فإن أدوات الحس والإدراك تزود العقل الإنساني بتمثيلات عن العالم تمثل ما يمكن أن يعد معرفة استدلالية، وهي معرفة كلية طبيعية موجودة في العقل الإنساني عند جميع البشر، وتمثل ما يمكن تسميته بأبنية الحياة الطبيعية. وهذا العنصر مشترك مع جميع رؤى العالم، لكن العقل المسلم يكون أبنية عقلية عن العالم تتعلق بالإله الخالق، والنبوة، والمعاد. وكل واحدة من هذه الأبنية تحتوي على مفاهيم تفصيلية ومصطلحات عدة. وبعض هذه الأبنية هي أبنية معرفية يحصلها الفرد بالعلم والتعليم، وتشكل في مجملها نظاما معرفيا، كما يتشكل نتيجة لمجمل الفهم والسلوك الديني الإسلامي نظام قيمي متكامل مع النظام المعرفي بطريقة يصعب ملاحظة الحدود بينهما، وأخيرا فإن الأبنية العقلية تتضمن أيضا مفاهيم كبيرة تتعلق بموقع الإنسان في الكون وموقع الأمة المسلمة بين البشر، ويتمثل ذلك بمفهوم الخلافة ومفهوم الأمة. وبذلك فإن المعرفة التي تمثلها العلوم الاجتماعية في المنظور الإسلامي سوف تُستمد من المرجعية الإسلامية في مصادرها وطرق اكتسابها وتحتكم إليها في صياغتها وتوظيفها. وهذا ما يجعل وظيفة رؤية العالم وظيفة معرفية.[59]

الخاتمة:

لم يكن الهدف من هذه الورقة استقصاء المكونات التي تشكل رؤية العالم في المنظور الإسلامي رغم أهمية ذلك، فلهذا مقام آخر، إلا أنه يكفي القول في هذا المقام إن الأساس المركزي لهذه الرؤية هو التوحيد الخالص الذي يؤمن بالله -عز وجل- خالق كل شيء، لمقصد محدد وليس عبثا، ووفق سنن محددة، وهو يتولى تدبير أمر هذه المخلوقات، والكون والحياة والإنسان هي بعض هذه المخلوقات القائمة في عالم الشهادة، وثمة عالم آخر هو عالم الغيب فيه مخلوقات أخرى أعطانا الله شيئا يسيرا من المعرفة عن بعضها. ونظرا لأن للإنسان موقع التمكين في هذا الكون فهو خليفة فيه والكون مسخر له، فقد بعث الله للإنسان أنبياء وأوحى إليهم كتبا تتضمن ما يلزمه ليهتدي بها لإقامة حياة تتحقق فيها مقاصد الخلافة في الأرض، والاستعمار والاستثمار الأفضل لأشياء الكون وإمكاناته وطاقاته. وتحتوى هذه الكتب على جملة من المبادئ العامة التي يمكن أن يستلهم منها الإنسان تفاصيل كثيرة لتحقيق السعادة وبناء الحضارة، منها مثلا: التوازن بين الاهتمام بالمادة والروح، ومصالح الفرد والجماعة، وغير ذلك من جوانب التوازن. وقد خلق الإنسان مزودا بالقدرة على اكتساب المعرفة وتطوير أسباب الحياة، بوصف ذلك من متطلبات الخلافة والتمكين. ومن هنا جاء موقع العلم والتعليم في حياة الإنسان في المنظور الإسلامي، ومن هنا اجتهد علماء المسلمين في تصنيف العلوم وتحديد أولويات النظر والبحث والتأليف فيها. فعلوم النظر في الوحي المنزل مهمة لا بد من تطويرها، لكن ذلك ليس على حساب علوم الإنسان فردا وجماعة سواء ما يتعلق بآفاق النفس الإنسانية أو تاريخ

---

[59] يعتمد ألب أرسلان في هذا الفهم لرؤية العالم وارتباطه بالبنية العقلية البشرية، على إيمانويل كانت ، ويشير إلى أن ترجمة كتابي كانت: "نقد العقل المحض" و"نقد الحكم"، لكنه يلتقي أيضاً بصورة مباشرة مع محمد النقيب العطاس، وبخاصة في تفسيره لمفهوم "الإسلامية" في رؤية العالم الإسلامية. انظر في هذا الشأن كتاب العطاس:

Al-Attas, Syed Muhammad Naquib. *Prolegomena to the Metaphysics of Islam: An Exposition of the Fundamental Elements of the Worldview of Islam*, Kuala Lumpur: ISTAC, 1995

الحياة البشرية أو شؤون إدارة المجتمع وتحقيق مصالحه وضبط علاقاته بغيره من المجتمعات... إلى آخر ما عرف بالعلوم الإنسانية والاجتماعية. وكذلك فإن تطوير العلوم في هاتين الفئتين ليس على حساب فئة ثالثة تتمثل في علوم الكون الطبيعي، سواء في فهم الأشياء والظواهر الكونية أو في تطوير الأدوات والتقانات التي تعين على توسيع هذا الفهم وتعميقه وفي توظيف الموارد المختلفة لتذليل سبل الحياة وإقامة الحضارة.

وقد تبين لنا أن رؤية ا لعالم هي: مجموعة المفاهيم والمعتقدات والتصورات الإدراكية التي تمكننا من فهم الكون والحياة والإنسان والعلاقات القائمة بينها، وأن العلوم الاجتماعية تتميز عن غيرها من العلوم، في أن صياغة مفاهيمها ونظرياتها تتأثر تأثرا مباشرا برؤية العالم التي يمتلكها الشخص الباحث أو الجماعة العلمية التي تقوم بهذه الصياغة، وكذلك الأمر في تدريس هذه العلوم، وفي توظيفها. وإذا كان هذا هو الحال في حقيقة الأمر فإنه يمثل مشكلة للدوائر الأكاديمية في تعاملها مع العلوم الاجتماعية، حتى في سياقاتها الغربية الحديثة. وأن هذه المشكلة تتضاعف حدتها عند النظر إلى الموضوع في الدوائر التعليمية والثقافية في البلاد الإسلامية.

كما تبين أن التربويين والعلماء والمفكرين في العالم الإسلامي لا يولون العلوم الاجتماعية الاهتمام الذي تستحقه بوصفها علوم الأمة، وفي كثير من الأحيان يكتفي المعنيون بالأمر بالإشارة إلى أزمة العلوم الاجتماعية على المستوى الأكاديمي العام، دون التأمل في طبيعة الأزمة في الداخل الإسلامي.

والعلوم الاجتماعية هي مجالات معرفية متخصصة هدفها تمكين الإنسان من فهم الواقع الاجتماعي والظاهرة الاجتماعية والسلوك الإنساني، من أجل ترشيد هذا السلوك على أساس من المعرفة الصحيحة. ونحن نجد أعدادا متزايدة من العلماء المتخصصين بالعلوم الاجتماعية يريدون أن ينطلقوا من منطلقات إسلامية، من حيث أداؤهم لعملهم العلمي والتعليمي، وهذا يعني الربط المحكم بين العمل العلمي والإيمان الديني، بصورة يشعر فيها العالم وهو يؤدي عمله العلمي أنه عالم مؤمن، وأن هذا الإيمان هو قلب العلم. ويقتضي ذلك بطبيعة الحال النظرة التحليلية الناقدة لبنية المعرفة، وما قد يستلزم ذلك من إعادة تشكيل أو صياغة.

وهكذا يكون أمام العالم الاجتماعي المؤمن مهمتان: الأولى تحديد المقصود بالربط المطلوب بين الإيمان والمعرفة، والثانية بيان الطريقة التي يقود فيها الإيمان العمل العلمي ويشكله. وهاتان المهمتان تستدعيان بالضرورة رؤية العالم، ومن هنا جاء الربط في هذه الورقة بين العلوم الاجتماعية ورؤية العالم في سياق هذا العدد عن العلوم الاجتماعية من منظور إسلامي.

إن عالم الاجتماع المؤمن لا يتوقع منه أن يقف موقفا سلبيا إزاء البنى المعرفية لمجال اختصاصه، وإن النظرة التحليلية الناقدة لهذه البنى المعرفية تحتاج منه إلى قدر من الطاقة النفسية والجرأة، والتفاعل مع العاملين معه مباشرة في الميدان، ومن غيرهم ممن لهم علاقة بهذا الميدان، في ضوء الحاجة إلى الرؤية الكلية التي تفرضها رؤية العالم. فالعالم التربوي المؤمن مثلا يتعامل مع المعرفة التربوية في ضوء ما تقدمه الرؤية الإسلامية حول الفطرة البشرية والشخصية الإنسانية والحوافز والدوافع وأساليب العرض والتنظيم، ومعايير الأداء المستهدف من العملية التربوية، وعلاقة ذلك كله بطموحات الأفراد ومتطلبات المجتمع. ويتطلب منه ذلك ألا يكتفي

بالمعرفة التي يجدها في المصادر المعاصرة، ولكنه سوف يطلب مصادر التراث ويتعرف اجتهادات السابقين الذين حاولوا الانطلاق من الرؤية نفسها، وسيجد هذا العالم التربوي المؤمن نفسه في مواقع الممارسة العملية والتجربة والاختبار، وسوف يقوده ذلك إلى نتائج يناقشها من غيره، ويتولى غيره فحصها واختبارها في ضوء فهم آخر للمعرفة المعاصرة ولدلالات التراث ونتيجة لتجارب ميدانية أخرى، فيحصل الأخذ والرد، وتدور حركة العلم، نتيجة لهذا التواصل والتفاعل ويتعلم الناس من بعضهم وتنمو المعرفة.

إن رؤية العالم هنا ليست صورة ساكنة من الرؤية النظرية ولكنها مرجعية يتم تفعيلها لتوجيه الأداء والممارسة، وتكون نتيجتها تعبيرا عن قيمة ما نقوم به من عمل، وليس ما قيل أو يمكن أن يقال، فالعمل العلمي المؤمن هو عرض عملي "show" أكثر منه وصفا وحديثا "tell"!